مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الدكتور جميل صليبا

رائد الفلسفة العربية المعاصرة

١٣١٩ - ١٣٩٦هـ

١٩٠٢ - ١٩٧٦م

تأليف

مهاة فرح الخوري

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

الدُّكتور جميل صليبا

رائد الفلسفة العربية المعاصرة

مجمع اللغة العربية بدمشق

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الدكتور جميل صليبا

رائد الفلسفة العربية المعاصرة

١٣١٩ - ١٣٩٦هـ

١٩٠٢ - ١٩٧٦م

تأليف

مهاة فرج الخوري

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

الدكتور جميل حبيب صليبا

١٣١٩ - ١٣٩٦هـ/ ١٩٠٢ - ١٩٧٦م

الفهرس

تقديم ١١

كلمة شكر ١٩

المقدمة ٢٠

الفصل الأول

حياة «جميل صليبا» ٢٧

الفصل الثاني

آثار «جميل صليبا»

الفلسفية والفكرية والأدبية

أولًا: أهمّ مؤلفاته ٣٩

ثانيًا: مؤلفاته باللغات الأجنبية ٤١

ثالثًا: المقالات التي نشرها صليبا في مجلة المجمع العلمي العربي ٤٢

رابعًا: المجلات التي نشر فيها صليبا بحوثه ٤٦

خامسًا: مقالات بإشراف جميل صليبا ٥١

سادسًا: المواضيع التي بحث فيها جميل صليبا ٥٣

الفصل الثالث

مقتطفات من آثار «جميل صليبا»

أولًا: الشعر والشاعر ٥٩

ثانيًا: موسيقا العمل ٧٧

ثالثًا: موقفنا من الفلسفة ٨٠

رابعًا: تعريب الاصطلاحات العلمية ٨٥

خامسًا: الاصطلاحات الفلسفية ٨٩

سادسًا: الإبداع والاتباع ٩٥

سابعًا: التربية العربية بين الأصالة والاقتباس ٩٦

ثامنًا: النضال في سبيل الحضارة ٩٨

تاسعًا: معنى الديمقراطية ١٠٠

الفصل الرابع

«جميل صليبا» بأقلام أصدقائه ومحبيه

أولًا: الأستاذ الدكتور شاكر الفحام ١٠٣

ثانيًا: الأستاذ الدكتور عبد الكريم زهور عدي ١٠٥

ثالثًا: الأستاذ شحادة الخوري ١١٢

رابعًا: مهاة فرح الخوري ١١٨

خامسًا: الأستاذ إلياس أنطون نصر الله ١٢٦

سادسًا: الأستاذ إليان خباز ١٣٠
سابعًا: الأستاذ ميشيل أسمر ١٣٦
ثامنًا: الدكتور يحيى عبد الرؤوف جبر ١٣٨
تاسعًا: الدكتور جبرائيل بشارة ١٣٨
الأستاذ عيسى فتوح ١٣٨
الأستاذة كندة السوادي ١٣٨

الفصل الخامس

وقائع حفل تأبين «جميل صليبا»

كلمة الأستاذ الدكتور محمد الفاضل ١٤١
كلمة الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق ١٤٤
كلمة الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور ١٤٩
كلمة الأستاذ حافظ الجمالي ١٥٥
كلمة الأستاذ الدكتور كامل عيّاد ١٦١
قصيدة الأستاذ أحمد الجندي ١٧١
كلمة الأستاذ الدكتور فاخر عاقل ١٧٤
كلمة آل الفقيد ألقاها ابنه السيد حبيب صليبا ١٧٨

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

تقديم

مروان البواب

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

مجمع اللغة العربية بدمشق هو أبو المجامع العربية قاطبةً؛ فقد أُسِّس عام ١٩١٩م، وكان اسمُه وقتئذٍ (المَجمع العلميّ العربي). ولفظةُ (العلميّ) في اسمِهِ هي للدلالة على أن المجمعَ يُعنى بعلوم العربية مثلما يُعنى بما له صلةٌ باللغة العربية من العلوم الأخرى. ولذلك كانت رسالةُ المجمع: المحافظةَ على سلامة هذه اللغة، وجَعْلَها وافيةً بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائِمةً لحاجات الحياة المتطوِّرة.

صحيحٌ أن المجمعَ لا يُجري تجارب في الفيزياء أو الكيمياء، ولا يُثْبت المبرهَنات في الرياضيات، ولا يدقِّق في المكتشفات الطبية والمخترعات التِّقْنِيَّة، ولا يتحرَّى صحة النظريات الفلسفية والظواهر الفلكية... وصحيحٌ كذلك أن المجمعَ لا يبحث في علوم الحاسوب والإدارة والاتصالات والنبات والتاريخ والهندسة والكهرباء... لكنه يبحث - بالمقابل - في مصطلحات هذه العلوم بأجمعها وَضْعًا وتعريفًا وتنسيقًا وتوحيدًا، وأهم من هذا أنه يبحث في اللغة التي يستعملها أصحاب هذه العلوم للتعبير عن أغراضهم ومقاصدهم؛ يبحث في مبانيها ومعانيها، ومفرداتها وتراكيبها، وأصيلها ودخيلها، وصحيحها وسقيمها...

وعلى هذا فإن رسالةَ المجمع هي البرهانُ على أن العربيةَ هي لغةُ العلم والأدب، والثقافةِ والحضارة في آنٍ معًا. وهي كذلك ردٌّ على الذين يزعمون – جهلًا أو تجاهلًا – أن العربيةَ لغةٌ عاجزةٌ قاصرة، وأنها إنما تَصلح للشعر والوصف، والمدحِ والهجاء، والوقوفِ على الأطلال، والتعبيرِ عن حياةِ الأعراب في بواديهم، فلما مضى زمنُهم، مضى زمنُها. وهذه الرسالةُ ردٌّ أيضًا على المشنِّعين الذين يدَّعون أنَّ العربيةَ لا تستطيع أن تواكبَ التطوُّرَ التِّقْنِيَّ في العالم، وما يَطرأ فيه من اكتشافات، وما يَنشأ فيه من مُسْتَحدَثاتٍ في جميع مناحي الحياة: في الصناعة والتجارة، والطبِّ والعلوم، والفضاءِ والبحار، والاتصالات والمعلوميات...

إن رسالةَ المجمع القائمةَ على ركنَيْها الأساسيين: اللغةِ والمصطلح، لا يمكن تحقيقُها إلا بجهودِ علماءَ مخلصين نَذَروا ألسنتَهم وأقلامَهم للنهوض باللغة العربية والدفاع عنها، وبَذَلوا في سبيل ذلك طاقاتِهم وأعمارَهم بعزيمةٍ ماضيةٍ ونفسٍ راضية. ولا يمكن تحقيقُ هذه الرسالة أيضًا إلا إذا كانت اختصاصات أعضاء المجمع في شتى ميادين العلم، يُكَمِّل بعضُها بعضًا. ولذلك فأنت تَجدُ في هؤلاء الأعضاء: الطبيبَ الحاذق، واللغويَّ الأديب، والفيزيائيَّ الأريب. تَجدُ فيهم العالمَ بالرياضيات، والمختصَّ بالنبات، والمهندسَ المِفَنّ، والصيدليَّ المتمكِّن. وتَجدُ فيهم الشاعرَ المُجيد، والعالمَ بالفلسفة، والخبيرَ في التربية، والقانونيَّ اللامع، والمعجمِيَّ المدقِّق...

* * *

إنَّ ما ذكرتُه آنفًا إنما هو إجابةٌ عن تساؤلٍ ربما ينشأ في أذهان غيرِ المطَّلعين على أعمال مجمع اللغة العربية ونشاطاته؛ فقد يتخيَّل بعضُهم أن عضوية المجمع تقتصر على المختصين في علوم العربية، وأنه لا مكان في المجمع لأحد سواهم. غير أن

الواقعَ على خلاف ذلك، فالدكتور جميل صليبا – الذي نترجم له في هذا الكتاب – انتُخب عضوًا في المجمع عام ١٩٤٢، مع أنه مختصٌّ في الفلسفة. وقد أفاد منه المجمع والمجتمع عِلْمًا غزيرًا وفكرًا منيرًا، وخلَّف آثارًا خالدةً يستفيد منها طلاب العلم على مَرِّ الأيام وكَرِّ السنين.

* * *

الدكتور جميل صليبا شخصيةٌ علمية فذَّة، وصفه عارفوه بأنه: رائد الفلسفة العربية المعاصرة، وأحد أعلام التربية في القرن العشرين. تحققت على يديه قفزةٌ عقلية حضارية. أحبَّ طلَّابه فأحبوه. تعدَّدت نشاطاته وتميَّزت. كان من طرازٍ رفيع في كل مظاهر حياته: في سلوكه وتدريسه، ومعاملته وإدارته، وفكره وتصرفاته.

وصفه تلميذُه الأستاذ الدكتور شاكر الفحام بأنه ÷كان معلمًا مربيًا حقًّا... وكان له في خدمة العربية، والإبانة عن أسرارها ودقائقها والمنافحة عنها القِدْحُ المعلَّى×. ووصفه خَلَفُهُ في المجمع الدكتور عبد الكريم زهور عدي بأنه ÷كان معتدل المزاج ضابطًا لأعصابه وتصرفاته وعواطفه، عقلانيًّا واقعيًّا مجدًّا دؤوبًا قادرًا على التنظيم وصادقًا في أعماله×. ووصفه الأستاذ إلياس أنطون نصر الله في كتابه (جميل صليبا مفكرًا ومربيًا) فقال: ÷لقد أجمع كلُّ الذين عرفوه على أنه كان شخصًا مهذبًا لطيفًا مجدًّا دؤوبًا دمثًا خلوقًا حكيمًا، هادئَ الطبع، على علاقات طيبة مع الجميع، صادقًا رزينًا، يحترم الموعد فهو عنده أمر مقدس، متواضعًا، صديقًا لطلابه وأبًا، متفائلًا ذكيًّا، صارمًا كحدِّ السيف في كلِّ ما يمكن أن يَمَسَّ المصلحةَ العامة، شجاعًا، كثيرَ المطالعة×.

* * *

لقد كانت حياة صليبا حافلةً بالعمل غنيةً بالثمار الطيبة، مُلئت جِدًّا ونشاطًا، تعلُّمًا وتعليمًا، بذلًا وعطاءً. قسَّمها الدكتور عبد الكريم زهور عدي إلى خمس مراحل؛ سمَّاها:

١. مرحلة الطلب: بدأ فيها صليبا دراسته في المدرسة الآسية، ثم في المكتب السلطاني العثماني، ثم في مكتب عنبر. وقد تأثر صليبا في هذه المدة بعاملين مهمين تركا أثرًا بالغًا في نفسيته وتفكيره ونزعته العربية الأصيلة؛ أما العامل الأول، فهو جو التسامح والتعاون والعلاقات الطيبة بين أبناء المسلمين والمسيحيين في المنطقة التي كان يَدرس فيها. وأما العامل الثاني، فهو أساتذتُه في مكتب عنبر المشهودُ لهم بالعلم والوطنية ومكارم الأخلاق.

ثم أُوفد صليبا إلى فرنسا لتحصيل تعليمه العالي، فدرَس في جامعة السوربون وحصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٢٦، فكان أول عربي سوري يحمل هذه الشهادة.

٢. مرحلة التدريس: بعد عودة صليبا إلى الوطن عُيِّن مدرسًا لمادة الفلسفة في مكتب عنبر ومدارس الآسية (١٩٢٧). وصار بعدها مديرًا عامًّا لها. وإلى هذه المرحلة يرجع كتاباه التعليميان: (علم النفس) و(المنطق)، والمنتخباتُ من نصوص الفلسفة العربية: (ابن خلدون) و(المنقذ من الضلال) و(حي بن يقظان) و(ابن سينا)، وجملةُ محاضراته: (من أفلاطون إلى ابن سينا).

٣. مرحلة الإدارة: وفيها عُيِّن مديرًا للتعليم الثانوي والفني والإكمالي (١٩٣٥)، فمديرًا لدار المعلمين (١٩٤٤)، فرئيسًا للجنة التربية والتعليم (١٩٤٥)،

فأمينًا عامًّا لوزارة المعارف (١٩٤٩). وإلى جانب إدارته الناجحة، وَضَعَ كثيرًا من البرامج والأنظمة التعليمية، وسطَّر دراساتٍ وتقاريرَ عن إصلاح التعليم. واستفاد من تجربته في هذه المرحلة في تأليف كتاب (مستقبل التربية في الشرق العربي).

٤. المرحلة الجامعية: وفيها عُيِّن عميدًا للمعهد العالي للمعلمين (كلية التربية ١٩٥٠-١٩٦٤)، وألقى فيها محاضرات في علم النفس، والتربية، وفلسفة برغسون، وتاريخ الفلسفة الحديثة، والفلسفة العربية، والاتجاهات الفكرية في بلاد الشام. ثم عُيِّن نائبًا لرئيس الجامعة السورية (١٩٥٨).

وفي هذه المرحلة برزت شخصية صليبا العالِم الباحث والأستاذِ المحاضر، واتسعت علاقاته الثقافية على الصعيد العربي والعالمي؛ فصار عضوًا في اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (١٩٥٥)، وعضوًا في اللجنة الدولية لعلوم التربية (١٩٥٨)، وعضوًا في مجلس المديرين للموسوعة العربية الميسرة (١٩٥٩). ومثَّل سورية في كثير من المؤتمرات الدولية، وشارك في كثير من الحلقات والمهرجانات والندوات العربية والدولية... وهكذا أضحى صليبا الوجه الثقافي لسورية عربيًّا ودوليًّا.

٥. المرحلة البيروتية: في سنة (١٩٦٤) أُحيل صليبا على المعاش، فنقلَ سكنَه ونشاطَه إلى بيروت، لكنه أبقى على كثير من صلاته بدمشق. حاضرَ صليبا في المركز الإقليمي لليونسكو في بيروت (١٩٦٤-١٩٧٠)، وفي الجامعة اللبنانية، وفي معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية. وقد أفاد صليبا من عمله في هذه المرحلة، فألف كتابَ (مستقبل التربية) الذي ضمَّنه حصيلة جهوده في ميدان التربية إدارةً وتدريسًا، وكتابَ (الإنتاج الفلسفي) الذي قدَّم فيه خلاصةَ اطِّلاعِهِ

ورأيه في إنتاج معاصريه من المفكرين والدارسين في ميدان الفلسفة، وكتابَ (الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث) و(اتجاهات النقد الحديث في سورية)، و(تاريخ الفلسفة العربية) جمعَ فيها تنقيبَهُ وتأملاتِهِ في الفلسفة العربية، وأخيرًا كتابَ (المعجم الفلسفي) وهو آخرُ مؤلَّفاته وأشهرُها.

* * *

ومن المراحل المهمة في حياة صليبا عضويتُهُ في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية حاليًّا). ومع أن انتخابه عضوًا عاملًا في المجمع كان في سنة ١٩٤٢، فقد كانت صلته بالمجمع أقدم من ذلك بكثير؛ فهي تعود إلى سنة ١٩٢٥ يوم كان طالبًا في جامعة السوربون؛ ففي تلك السنة نشرت مجلةُ المجمع أولَ مقالٍ لصليبا في المجلد الخامس، سنة ١٩٢٥. ثم تتالت مقالاته في مجلة المجمع، حيث نَشَرَ فيها ٩٥ مقالًا، كان آخرها في نيسان ١٩٧٧ بعد وفاته بستة أشهر.

اختير صليبا عضوًا في لجنة المجمع الإدارية في سنة ١٩٤٤، وبقي فيها إلى حين انتقاله إلى بيروت (١٩٦٤).

تجلَّت أعمال صليبا خلال عضويته في المجمع في مجموعةٍ مهمةٍ من الدراسات في الفلسفة والمنطق والتربية والنقد وعلم النفس والتراجم وغيرها... طُبع بعضها ضمن كتبٍ من إصدارات المجمع، ونُشر سائرها في مجلة المجمع. واشتملت أعمالُ صليبا خلال عضويته في المجمع كذلك على تحقيق المخطوطات، ووضع المصطلحات، وإلقاء المحاضرات، وتمثيل المجمع في عددٍ من المؤتمرات والمهرجانات العربية والدولية.

وفي سنة ١٩٦٤ أُحيل صليبا على التقاعد وانتقل إلى بيروت، فقدَّم استقالته من اللجنة الإدارية للمجمع، وذلك لتعذر حضوره اجتماعات هذه اللجنة، لكنه بقي على صلةٍ بالمجمع إلى حين وفاته.

* * *

وبعدُ، فإن لجنةَ أعمال المجمعيين الأوائل في مجمع اللغة العربية بدمشق عَهِدَت إلى الأديبة الباحثة مهاة فرح الخوري بإعدادِ كتابٍ عن حياة الدكتور جميل صليبا، فنهضَت بهذه المهمة على خير وجه، وألَّفت هذا الكتاب وهي في مغتربها في دبي. وساعدها على إنجاز مهمتها كلٌّ من: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي الذي أتاح لها البحث في جناح الدكتور صليبا، ومجمعِ اللغة العربية بدمشق الذي زوَّدها بقائمة كاملةٍ بالمقالات التي نَشرها صليبا في مجلة المجمع مع نُسَخٍ من بعضها، وبوثائق من ملف صليبا المحفوظ لدى المجمع، إضافةً إلى مصادر أخرى تناولت سيرته وآثاره.

استطاعت السيدة مهاة فرح الخوري أن تصوِّر لنا سيرةَ صليبا تصويرًا يُبرز مكانةَ هذا العالم الجليل وأخلاقَه وأوصافه، بأسلوبها الجميل المعهود، المشحونِ حينًا بعد حين بعواطفَ جياشةٍ فرضتْها صداقةٌ حميمةٌ جمعت أسرةَ صليبا وأسرةَ الخوري.

وأحسنت المؤلِّفةُ إلى هذا الكتاب إحسانًا أوجبَ التنويه به؛ فمن ذلك أنها عرضت آثار صليبا عرضًا مفصَّلًا، وأوردتْ منها مقتطفاتٍ دلَّلتْ فيها على علو كعبه في اللغة والفلسفة على حدٍّ سواء، وأبرزتْ بعضَ آرائه ومنطلقاته الفكرية. ومن ذلك أنها نقلت أقوالًا لعلماءَ وأدباءَ ومفكّرين أشادوا بالدكتور صليبا وإنتاجه وبمكانته

العلمية وقِيَمِهِ الأخلاقية. ومن ذلك أنها أثبتت جميعَ الكلمات التي أُلقيت في حفل تأبين صليبا بتمامها وكمالها، إذ إن هذه الكلمات أسهمت – إلى حدٍّ بعيد – في تحليل شخصية الدكتور صليبا كاتبًا ومترجمًا وباحثًا ومفكرًا ومؤلِّفًا وإداريًّا وصديقًا وزميلًا وأبًا؛ فقد تعاقب على الكلام في هذا الحفل ثمانيةٌ من العلماء الذين كانت تربطهم بالدكتور صليبا روابطُ الصداقة والعمل والتلمذة والنسب، وأدلى كلٌّ منهم بدلوه في رسم صورةٍ متكاملة عن شخصية صليبا وأخلاقه وعلمه وعمله.

نشكر للسيدة مهاة فرح الخوري جهودها في تأليف هذا الكتاب متمنين لها دوام الصحة والتوفيق.

شكر وتقدير

لا يسعني إلا أن أتوجه بخالص الشكر والامتنان إلى «مجمع اللغة العربية» بدمشق، بشخص رئيسه الدكتور العلاّمة «الأستاذ مروان المحاسني» وإلى لجنة أعمال أعضاء المجمع، على الثقة التي شرّفوني بها، بتكليفي إعداد كتاب عن سيرة المفكّر العليم الفيلسوف «الدكتور جميل حبيب صليبا» آملة أن أكون على مستوى المسؤولية التي تشرّفت بقبولها وتلبيتها، لكونها أرفع مؤسسة علمية أدبية لغوية في بلدي الحبيب سورية، وفي قلبها عاصمتها دمشق.

مهاة فرج الخوري

المقدمة

قبل أن ألج الترتيب العلمي التقليدي الذي أحترمه وأقدّره، إذ سار على منواله وأسلوبه «مجمع اللغة العربية» في سرد حياة علماء، مفكّرين، لغويّين، فلاسفة عرب وسوريين، أعضاء في مجمع اللغة العربية «المجمع العلمي العربي» (سابقًا)، بإصدار كتب قيّمة بسيرهم وإنتاجهم اللغوي العلمي والفلسفي، أسمح لنفسي بأن أستهلّ الكتاب بلمحة موجزة راصدة بها: مسقط رأس صليبا، طفولته، نشأته، ومعرفتي بالأستاذ العلامة الدكتور صليبا منذ نعومة أظفاري.

* * *

منذ طفولتي، وفي يفاعتي، وعيت «جميل صليبا» صديقًا مخلصًا لوالدي: الأديب الشاعر، المعلّم، أستاذ اللغة العربية وآدابها: «ميشيل جبران فرح»، فكان انتزاع «صليبا» لإعجابي وعائلتي ولتقديرنا جميعًا طبيعيًّا.. بيد أنه بالنسبة لي وربّما لإخوتي كنا نجهل قيمة الفيلسوف العربي الحقيقية والفعلية آنذاك، ولعلّ ذلك يعود إلى كوننا أطفالًا من جهة، وإلى تواضع صليبا الجمّ وإلى كياسته ولطفه وأسلوب توجهه نحونا بلغة بسيطة يستوعبها الأطفال واليافعون أيضًا.

ولا بدّ لي في هذا الصدد من الإشارة إلى أن تواضع «صليبا» الجمّ وأنسه وقربه من جميع الأجيال والأعمار، صفات تحلّى بها فيلسوفنا، جعلتني وإخوتي نتحدّث معه

كأقرب المقرّبين لنا، في حين كان الفيلسوف الكبير: «الرائد بين الفلاسفة» في سورية العزيزة، يساير عالم الطفولة واليفاعة، يسبر النفوس الصغيرة التي تغلّف آفاقًا بعيدة، كاشفًا بساطتها وعمقها بآن، منتزعًا محبّتها وإعجابها، فإذا به يصبح الأعزّ على قلوبنا. ولم لا؟

«جميل صليبا» حاملُ – كما نُعِت – «باقة متنوعة من الشهادات»، ها هو يتآلف مع الصغير ومع الكبير، مع اليافع والطفل، ولم تلبث الطفولة إلا أن تتخذه رفيقًا، صديقًا، مستشارًا، لا بديل عنه.

كيف تم التعارف بين الدكتور «جميل صليبا» وبين والدي الأديب الشاعر الأستاذ «ميشيل فرح»؛ أبو زهير؟ وكان آنذاك يدرّس الأدب العربي والعَروض، وعلم الآلة؟

في عام ١٩٢٥ ولغاية عام ١٩٣٨ عُيِّن «صليبا» بعد عودته من فرنسا حاملًا باقةً من الشهادات (كما وُصِف) مديرًا لـ «المدرسة التجهيزية الأرثوذكسية» الآسيّة، وكذلك عُيّن والدي في عهده «معاون مدير» لها، فنتج عن الوضع الوظيفي والإخلاص من الطرفين، تعاون مثمر وإخلاص وتفاهم. وقد أدّى هذا إلى نهضة غير مسبوقة ونجاح كبير، وتقدّم علمي وأدبي نتج عنه كوكبة متميّزة من الخرّيجين. وهذا الواقع والإخلاص في التعاون بين المدير ومعاون المدير نتج عنه صداقة وعلاقة عائلية متينة لا شائبة فيها، استمرت طوال العمر.

كيف كنّا نقضي أيام الجُمع في فصل الصيف؟ في طفولتنا مع كبير الفلاسفة وأستاذ اللغة العربية وآدابها ومعلّم الآلة (كما كانت تدعى) الصرف والنحو، إلخ...؟

أيام جميلة مقدّسة مسليّة جامعة للشمل.

نستيقظ مع الفجر، يتجمع الأصدقاء عند باب منزلنا في «برج الروس». والدي هنا بانتظار العلامة الدكتور « جميل صليبا» حامل أول دكتوراه في الفلسفة في سورية، والدكتور «أنطوان جنّاوي» عالم الذرّة، وقد أُحدث له فيما بعد «مركز للبحوث» في باريز ونال شهرة عالمية، وأيضًا الأستاذ المدرّس «عبد الله دياب».

إخوتي وأنا، كنّا ننضم إلى تلك الهيئة العلمية الراقية والمتواضعة بآن. ما إن يكتمل النصاب حتى ننطلق سيرًا على الأقدام باتجاه «جوبر» ربما، المسافة تقدّر بساعة من الزمن، مزودين بطعام الفطور، وكانت هذه البقعة آنذاك في ريف دمشق؛ منطقة خالية، وحيدة، سكانها أقلية، يعيشون في بيوت عربية بسيطة، خضير، زراعات، تنتظر حنين السماء وعطفها بزخّات من الأمطار، وبعض الثلوج تبعث الحياة بحنان، وبكرم طبيعي.

ها نحن في حديقة واسعة بدائية تزينها أشجار تكرمنا ببعض فواكه الموسم، ثمة شبه مطعم خالٍ من كل شيء باستثناء ألوان الطبيعة الخلابة... والحديقة المرحّبة والأرض والأشجار، أما مالك الصرح الطبيعي فيسرع ليكرّم ضيوفه بدءًا من تنظيف المنضدة والمقاعد، وجلب إبريق الشاي (السماور) وتوابعه..

* * *

هنا مع بساطة العلماء والأدباء والفلاسفة، كنّا «طفولة بريئة، ويفاعة» نستمتع زهاء ثلاث ساعات بأحاديث العلماء.. لم لا؟ فلسفية، علميّة مبسّطة. ودردشة تلفتنا وتُغْنينا، بل نطرب لها، نصغي إليها وإن كانت أرفع بدرجات كبيرة من مستوياتنا، منها مسلية، ومنها بسيطة أو يقصد تبسيطها من قبل الأساتذة العلماء.

أما العودة، فبواسطة النقل الوحيدة آنذاك، حافلة «الترامواي»، ننطلق من

محطة قريبة للحديقة لغاية «باب توما» آخر محطة.. فالترامواي البلجيكي الصنع كان أنيسًا لطيفًا ومتينًا.

* * *

هكذا كان العلامة «جميل صليبا»، حامل أول دكتوراه في سورية في الفلسفة من جامعة السوربون، من أعزّ الأصدقاء على والدي، يعاملنا كما لو كنّا أولاده، وكان لا يزال عازبًا في ذلك الأوان.

توطدت هذه الصداقة وتعزّزت بانتقالنا إلى عمارة والد «جميل صليبا» في شارع بغداد، وكانت مع عمارة «فايز بك الخوري» أقدم بناءين لافتين فنًّا وذوقًا ورصانة في الشارع المذكور.

وبحكم الجوار كنّا لا نفترق، مع احترام كل منا لخصوصيات الآخر. وكانت عائلة صليبا آنذاك، مكوّنة من والدته وأختيه؛ «وديعة» مدرسة في المدارس الرسمية، و«جورجيت» ملازمة للبيت ولوالدتها. والأخ «جورج» شقيق وحيد للعلامة «جميل».

* * *

بعد عزوبية طويلة تزوّج العلامة جميل صليبا من نسيبة لوالدتي المدرّسة «لوريس قندلفت»، وهي شابة خلوقة تحمل شهادة الكفاءة، وفي عام ١٩٤٩ أنجبت ابنها الوحيد «حبيب». وكان سرّ أبيه ذكاء وأخلاقًا وتربية، يكبر ابني البكر «إياس وديع الخوري» بأشهر، وبقيا صديقين حميمين في طفولتهما، في الصفوف الابتدائية والثانوية. افترقا في مرحلة الدراسات الجامعية إلى أن اختطف الموت «حبيب صليبا» بحادث مروّع في لندن. وكانت كارثة لعائلته ولرفاقه.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الفصل الأول

حياة جميل صليبا

مَن هو «جميل صليبا» حامل أول دكتوراه في الفلسفة في سورية من جامعة «السوربون» في باريز؟

إنه ابن «حبيب الخوري داود صليبا»، ولد في شهر شباط عام ١٩٠٢ في «القرعون» من «قضاء البقاع الغربي» محافظة البقاع، كان والده متعهدًا ومعماريًّا، انتقل إلى دمشق مع أسرته عام ١٩٠٨ بهدف العمل في شقّ طريق «دمشق–درعا».

ابنه البكر «جميل صليبا». كان التحق بمدرسة الآسية ولم يكن يبلغ السادسة من عمره، ثم بالمكتب «السلطاني العثماني». وفي عام ١٩١٨ تابع دراسته في «مكتب عنبر»، وفي عام ١٩٢١ حصل على شهادة الدراسة الثانوية.

ونظرًا لتفوقه ذكاءً وجدّيةً واجتهادًا، أوفدته «وزارة المعارف السورية» آنذاك إلى باريز لمتابعة تحصيله العلمي.

انتسب الشاب الطموح والمتفوق إلى فرع الفلسفة في كلية الآداب في جامعة السوربون، ولتمكّنه من اللغة الفرنسية وإتقانه لها، حصل على «دبلوم» في التربية من «معهد علم النفس» في باريز عام ١٩٢٣، وأيضًا على درجة الإجازة في الآداب–فرع الفلسفة عام ١٩٢٤، ولم يلبث أن استحق درجة الإجازة في الحقوق عام ١٩٢٦، وفي العام نفسه قدّم رسالة الدكتوراه بعنوان: «دراسة في فلسفة وميتافيزيقية الشيخ الرئيس ابن سينا». وفي عام ١٩٢٧ قدّم رسالته المكمّلة أو المتممة بعنوان: «نظرية المعرفة على مذهب المدرسة الاجتماعية الفرنسية». فمنحته «جامعة السوربون» درجة «الدكتوراه في الآداب–قسم الفلسفة»، وكان أول عربي سوري يستحق الشهادة المذكورة في العلوم الإنسانية.

وهكذا كانت الشهادات التي استحقها «جميل صليبا» في باريز، وعاد بها بتواضع العالم إلى دمشق:

١. دبلوم التربية من معهد علم النفس عام ١٩٢٣

٢. درجة الإجازة في الآداب فرع الفلسفة عام ١٩٢٤

٣. الإجازة في الحقوق عام ١٩٢٦

٤. درجة الدكتوراه في الآداب عام ١٩٢٧ من جامعة باريز عن:

أ- رسالة في فلسفة الشيخ الرئيس «ابن سينا»

ب- رسالة في «نظرية المعرفة» على مذهب المدرسة الاجتماعية الفرنسية.

* * *

بعودة صليبا من فرنسا إلى سورية عام ١٩٢٧ بدأ حياته العملية، فعُيِّن مدرّسًا باختصاصاته: أي في الفلسفة في المدارس الثانوية، وعيّن مديرًا لمدرسة التجهيزية الأرثوذكسية (الآسيّة)، وبعدها رئيسًا للتعليم الثانوي والإكمالي، ومديرًا لدار المعلمين، وفي عام ١٩٤٩ سمّي أمينًا عامًا لوزارة المعارف.

أثناء تولّيه المنصب المذكور، عيّن رئيسًا لـ «لجنة التربية والتعليم».

في عام ١٩٥٠ انتقل صليبا إلى جامعة دمشق، وشغل منصب «عميد كليّة الآداب» في الجامعة السورية آنذاك. وعيّن أستاذًا في كلية التربية وعميدًا لها، منذ عام ١٩٥٠ ولغاية عام ١٩٦٤. وفي عام ١٩٥٨ شغل منصب رئاسة الجامعة بالوكالة. وانتخبته اللجنة الدولية لعلوم التربية في المدة ذاتها عضوًا عاملًا فيها.

مع نهاية عام ١٩٦٤ الدراسي، ندب الدكتور صليبا محاضرًا في المركز التعليمي لمنظمة «اليونسكو» في بيروت لتدريب كبار موظفي التربية في الوطن العربي؛ أعني «العالم العربي»، واستمر في هذا المنصب لغاية عام ١٩٧٠.

* * *

انتخب الدكتور صليبا عضوًا في مجمع اللغة العربية «المجمع العلمي العربي» (آنذاك) عام ١٩٤٢، وعضوًا في لجنته الإدارية عام ١٩٤٣.

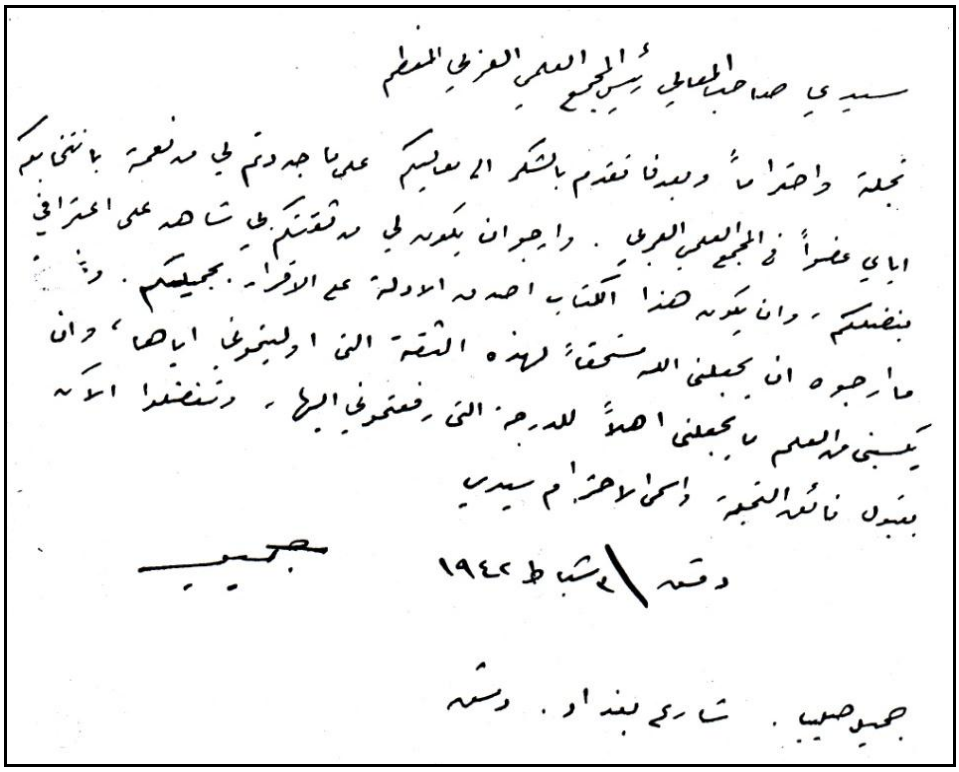

* * *

مثّل بلده في عدد كبير من المؤتمرات الدولية، منها:

- مؤتمرات اليونسكو العامة،
- مؤتمر الأدباء العرب،
- مؤتمر المجامع العلمية العربية،
- مؤتمر اليونسكو لدراسة الحاجات التربوية في العالم العربي،
- مؤتمر الشُّعب الوطنية لليونسكو.

وترأس مؤتمر اليونسكو لتدريس العلوم الاجتماعية المنعقد في دمشق عام ١٩٥٤.

* * *

شارك العلامة صليبا في عدد كبير من الحلقات والمهرجانات والندوات الدولية. ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- حلقة نظم التعليم في العالم العربي
- حلقة إعداد المربّي
- حلقة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية في بيروت
- مهرجانا المتنبّي والمعرّي
- مهرجانا ابن سينا في بغداد ١٩٥٢ و١٩٥٤

وكذلك ألقى عددًا كبيرًا من المحاضرات العامة في دمشق والمدن السورية، وفي بيروت والقاهرة وبغداد والكويت وباريز.

* * *

شارك الفيلسوف العربي في إصدار مجلة «المعلمين والمعلمات» عام ١٩٣١، وأسّس مجلة «المعلم العربي» وأشرف عليها لغاية عام ١٩٤٩. وشارك في إصدار «مجلة كلية التربية» وترأس تحريرها، وأسّس «جمعية متخرّجي كلية التربية».

* * *

لا بد لنا من الإشارة إلى أن «المجمع العلمي العربي» أفاد من الدكتور جميل صليبا لكونه مفكّرًا عربيًّا بارزًا له وزنه، كما استفاد هو من المجمع فركّز معلوماته تركيزًا ساهم في جعله في مصافّ العلماء، وقد أراد المجمع تكريمه، فرشحه لنيل الجائزة التقديرية للعلوم الاجتماعية في عام ١٩٦٠. وفي عام ١٩٦٤قدّم صليبا استقالته من المجمع بسبب انتدابه محاضرًا في المركز الإقليمي لمنظمة اليونسكو.

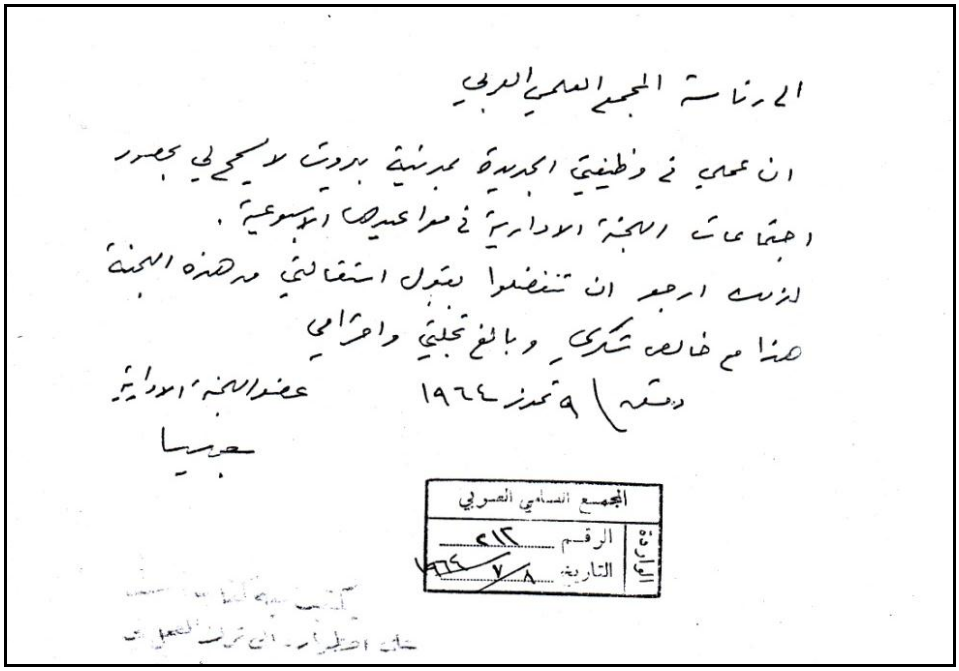
الى رئاسة المجمع العلمي العربي
ان عملي في وظيفتي الجديدة مديرية بيروت لا يحملني بحضور اجتماعات اللجنة الادارية في مواعيدها الاسبوعية.
لذلك ارجو ان تتفضلوا بقبول استقالتي من هذه اللجنة
هذا مع فائق شكري وبالغ تجلتي واحترامي
دمشق ٩ تموز ١٩٦٤ عضو اللجنة الادارية
جميل صليبا
المجمع العلمي العربي
الوارد
الرقم ٢١٢
التاريخ ٨/٧/١٩٦٤

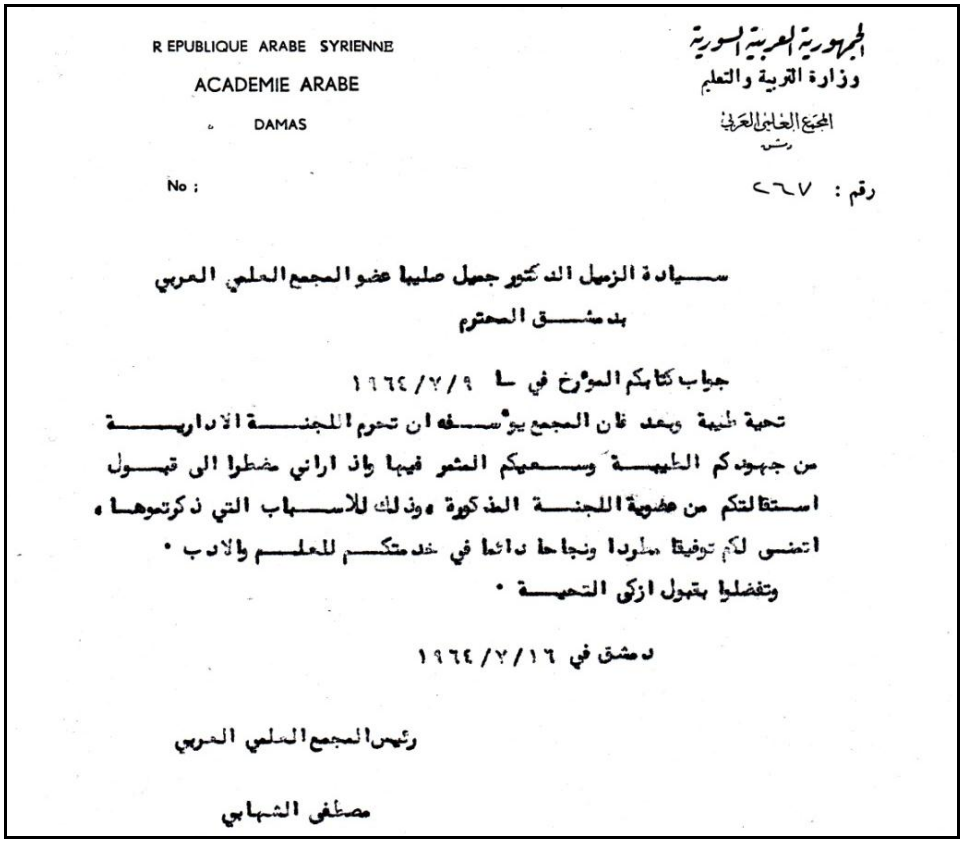

الجمهورية العربية السورية
وزارة التربية والتعليم
المجمع العلمي العربي
دمشق

رقم : ٧٦٧

R EPUBLIQUE ARABE SYRIENNE
ACADEMIE ARABE
DAMAS

No :

سيادة الزميل الدكتور جميل صليبا عضو المجمع العلمي العربي
بدمشق المحترم

جواب كتابكم المؤرخ في ٩/٧/١٩٦٤

تحية طيبة وبعد فان المجمع يؤسفه ان تحرم اللجنة الادارية من جهودكم الطيبة وسعيكم المشكور فيها واذ اراني مضطرا الى قبول استقالتكم من عضوية اللجنة المذكورة وذلك للاسباب التي ذكرتموها ، اتمنى لكم توفيقا مطردا ونجاحا دائما في خدمتكم للعلم والادب .
وتفضلوا بقبول ازكى التحية .

دمشق في ١٦/٧/١٩٦٤

رئيس المجمع العلمي العربي

مصطفى الشهابي

* * *

وجدير بالإشارة إلى أن وزارة التعليم العالي وكلية التربية كرَّمت العلامة صليبا بإطلاق اسمه على إحدى القاعات في الجامعة، كما كرّمه مجلس محافظة مدينة دمشق – بناء على اقتراح «مجمع اللغة العربية» بإطلاق اسمه على أحد شوارع المدينة، كما أطلقت وزارة التربية اسم «جميل صليبا» على إحدى ثانويات دمشق.

* * *

توفي الدكتور صليبا في بيروت في الثاني عشر من تشرين الأول عام ١٩٧٦. وشيّع إلى مثواه الأخير في دمشق في السادس عشر من الشهر ذاته، بمأتم مهيب لائق

بكبار الشخصيات العلمية والعلماء والفلاسفة، من قبل سورية وسلطاتها ومؤسساتها العلمية، بما درجت على تكريم رجالاتها بما يليق بهم.

* * *

خلال إقامة «د. صليبا» في بيروت ومشاركته في نشاطات فلسفية ثقافية عديدة، بدعوة من الجامعات والمؤسسات الثقافية العلمية، ومنها «ندوة الاثني عشر» التي أسسها «ميشيل أسمر» عام ١٩٣٦، والتي لم يكن أيٌّ من أعضائها قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر، وكان «الأسمر» يجمعهم في غرفته المتواضعة حول تخت حديدي أسود وناموسية وطاولة عتيقة، منهم من يجلس على كرسي ومنهم من يجلس على الأرض.

انبثقت عن (ندوة الاثني عشر) ندوة أخرى هي «الندوة اللبنانية» عام ١٩٤٦، وهي الابنة البارّة بسابقتها.. وبدأت مغامرتها الثقافية مستقطبة مختلف الشخصيات والتيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية في لبنان.

وفي هذا الإطار كان للعلامة «جميل صليبا» مشاركة فعّالة ودور هام في اللقاءات الفلسفية العلمية الثقافية للندوة. وقد تمكنتُ من الحصول على محاضرة له بعنوان: «إلى أين الشؤون العربية» ألقاها في ٢١ آذار ١٩٦٧، وكان آنذاك عميدًا لكلية التربية في الجامعة السورية، ومحاضرة ثانية بعنوان: «النهضة الثقافية في الشرق الأدنى العربي».

وفي الشهر السابع من عام ١٩٦٧، وفي إطار محاضرات الندوة ألقى محاضرة بعنوان: «الفكر التقليدي والفكر الحديث».

* * *

تبوّأ جميل صليبا مناصب عديدة. وكان فيها مجلّيًا سبّاقًا، نزيهًا شريفًا، صادقًا مخلصًا كما هي نشأته وتربيته..

فما إن عاد من باريز حاملًا الدكتوراه في الفلسفة وعددًا من الشهادات حتى قيل عنه: «جميل صليبا» يحمل باقة من الشهادات !

وكان أول مركز له أن عيّن مديرًا لمدرسة «الآسية» الثانوية. تلك التي تابع دراسته الإعدادية والثانوية فيها. كان حكيمًا في إدارتها، مخلصًا، نظيف اليد، واختار معاونًا له، في الإدارة، ومشرفًا على اللغة العربية وآدابها الأستاذ «ميشيل جبران فرح»، كما ذكرتُ آنفًا.

كان المدير ومعاون المدير منسجمين ومتفاهمين إلى حد بعيد، فأدى ذلك إلى نهوض مدرسة الآسية في مراحلها الثلاث الابتدائية والإعدادية والثانوية، فذاع صيتها واستقطبت معلمين وأساتذة قديرين من لبنان وباريز... وتلامذة من كل حدب وصوب ومن الانتماءات كافة.

لم يلبث صليبا لما لديه من نزاهة ومقدرة وإخلاص أن انتقل إلى وزارة التربية حيث شغل منصب «رئيس التعليم الثانوي». ثم شغل منصب أمين عام وزارة التربية، وبعد ذلك أصبح مدير المعهد العالي للمعلمين. ثم إنّ نجاحه في شتى الميادين وإخلاصه، جعلا منه عميدًا لكلية التربية، ومدرّسًا فيها.

وبعد حين صار رئيسًا بالوكالة للجامعة السورية، ثم أصبح عضوًا في «مجمع اللغة العربية».

وفي نهاية عام ١٩٦٤ نُدب محاضرًا في المركز الإقليمي لمنظمة اليونسكو، وكان هذا المنصب تكريمًا له ولسورية بما يليق في شتى المراحل. ولهذا كان صليبا مضطرًّا للاستقالة من مجمع اللغة العربية.

* * *

نهضَ صليبا بدور هامٍّ لافتٍ في شتى المناصب التي تولاها: من العلم غزيره، ومن الفلسفة وعلم النفس ما يصعب تعداده، عطاء مستمرّ..

ويحضرني قول للعلامة الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق، مستهلًّا كلمته في حفلة التأبين التي أقامتها له جامعة دمشق: «ما أكثر ما حصّل وما أغزر ما أعطى».

أما الدكتور فؤاد شباط، عميد كلية الحقوق لسنوات عديدة، فقال: «للدكتور جميل صليبا باقة لافتة متنوعة من الشهادات».

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

آثار جميل صليبا

الفلسفية والفكرية والأدبية

ثمة بحوث بقيت طويلًا في أدراج مغلقة، عفا الدهر عليها. لكن الكلمة العميقة والمفيدة مثلها مثل الذهب العتيق لا تفنى، وتبقى سارية المفعول ويفيد منها من يسعى لها ويقرؤها...

وهكذا تمكنت من نبش الذهب العتيق والكلمة التي لا تفنى في مقالات ودراسات فلسفية أدبية نفسية بليغة في الثروة الفكرية المنشورة لجميل صليبا، أعرضها كما يلي:

أولًا: أهمّ مؤلفاته

١. كتاب «ابن خلدون- درس وتحليل منتخبات»، مطبعة ابن زيدون، ١٩٣٣؛ مكتب النشر العربي، ١٩٣٤
٢. «المنقذ من الضلال»، بالاشتراك مع الدكتور كامل عيّاد، مطبعة ابن زيدون، مكتب النشر العربي، ١٩٣٤
٣. «من أفلاطون إلى ابن سينا»، محاضرات في الفلسفة العربية، مكتب النشر العربي، عام ١٩٣٥؛ دار الأندلس للطباعة والنشر، عام ١٩٥١؛ المكتبة الكبرى للتأليف والنشر، دمشق، ١٩٨١
٤. «علم النفس»، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٦؛ و ١٩٧٠؛ و ١٩٧٢؛ دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١
٥. «ابن سينا-درس وتحليل منتخبات»، مكتب النشر العربي، عام ١٩٣٧
٦. «دروس الفلسفة»، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٤٠
٧. «أحسن القصص»، ١٩٤٥
٨. «التقرير السنوي عن المعارف في الجمهورية العربية السورية»، عام ١٩٤٦

٩. «من الخيال إلى الحقيقة»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧

١٠. «المنطق وطرائق العلم العامّة»، بالاشتراك مع الدكتور كامل عيّاد، مكتبة العلوم والآداب، ١٩٤٧

١١. «الرسالة الجامعة» للرياضي الفلكي المجريطي، الجزء الأول، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٩٤٨

١٢. «الرسالة الجامعة»، للرياضي الفلكي المجريطي، الجزء الثاني، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٩٥١

١٣. «مقالة الطريقة» رينيه ديكارت، ترجمة جميل صليبا، ١٩٥١

١٤. «تقرير عام عن الدورة السابعة لمؤتمر اليونسكو المنعقد في باريز بين ١٢ تشرين الثاني و ١١ كانون الأول ١٩٥٢»، طبع عام ١٩٥٢، مطبعة الحجاز

١٥. كتاب «مقالة في الطريق»، الجزء الثاني من الكتاب أو المنهج لديكارت، ١٩٥٣

١٦. «إعداد المربّي» (ترجمة)، بالاشتراك مع حكمت هاشم وسامي الدروبي، ١٩٥٦

١٧. «شؤون عربية، النهضة الثقافية في الشرق الأدنى العربي»، نيسان ١٩٥٨

١٨. «الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث»، كتاب يضم اثنتي عشرة محاضرة، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٨

١٩. كتاب «حي بن يقظان» لابن طفيل، بالاشتراك مع الدكتور كامل عيّاد، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٢

٢٠. «الإنتاج الفلسفي خلال المئة السنة الأخيرة في العالم العربي»، مطبوعات المجمع العلمي العربي، عام ١٩٦٢

٢١. «مستقبل التربية في الشرق العربي»، جامعة دمشق، ١٩٦٢

٢٢. كتاب «الحيدة» عبد العزيز بن يحيى الكناني، المجمع العلمي العربي، ١٩٦٤

٢٣. «الدراسات الفلسفية»، الجزء الأول، مطبعة جامعة دمشق، عام ١٩٦٤

٢٤. «مستقبل التربية في العالم العربي»، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٧

٢٥. «اتجاهات النقد الحديث في سورية»، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٩

٢٦. «تاريخ الفلسفة العربية»، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٠

٢٧. مقدمة لكتاب «الموجز في تاريخ العلوم عند العرب»، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٠

٢٨. «المعجم الفلسفي»، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧١

٢٩. «المعجم الفلسفي»، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣؛ والشركة العالمية للكتاب، عام ١٩٩٤

٣٠. «التطور المبدع» هنري برغسون، ترجمه من الفرنسية إلى العربية صليبا

٣١. «الرأي العام» تأليف آنغريد سوفي، ترجمة كامل عيّاد، جميل صليبا

* * *

ثانيًا: مؤلفاته باللغات الأجنبية

- Etude sur la métaphysique d`Avicenne: Presse Universitaire de France-Paris, 1926

) وهي رسالته التي استحق بها لقب الدكتوراه(

- La Theorie sociologique de la connaissance

)وهي رسالته المتممة(

- La symbolisme phylosophique et l`usage du mythe chez les phylosophes arabes, 1955
- Syria, the yearbook of education 1953
- Islam, the yearbook of education 1957

* * *

ثالثًا: المقالات التي نشرها صليبا في مجلة المجمع العلمي العربي

السنة	المجلد	الجزء	الصفحة	عنوان المقالة
١٩٢٥	٥	٣	١٣٩	تعليق على كتاب (تهذيب الأخلاق)
١٩٢٨	٨	٥	٣٠٩	تعليق على كتاب (علم الأخلاق)
١٩٤٤	١٩	٢-١	٦٣	دراسات عن مقدمة ابن خلدون
١٩٤٤	١٩	٨-٧	٣٣٩	دراسات عن مقدمة ابن خلدون
١٩٤٥	٢٠	٤-٣	١٦٩	جابر بن حيان
١٩٤٥	٢٠	٦-٥	٢٠٥	الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية (١)
١٩٤٥	٢٠	٨-٧	٣٢٢	الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية (٢)
١٩٤٥	٢٠	١٠-٩	٤٦٩	فيلسوف العرب والمعلم الثاني
١٩٤٥	٢٠	١٠-٩	٤٧٣	واجب النائب
١٩٤٦	٢١	٤-٣	١٠٧	أبو الهذيل العلاف (١)
١٩٤٦	٢١	٦-٥	٢٠٥	أبو الهذيل العلاف (٢)
١٩٤٦	٢١	٦-٥	٢٦٢	منبعا الأخلاق والدين
١٩٤٦	٢١	٦-٥	٢٦٤	معطيات الوجدان البديهية
١٩٤٦	٢١	٦-٥	٢٦٥	مركب النقص
١٩٤٦	٢١	١٠-٩	٣٩٤	الغزالي وزعماء الفلاسفة (١)
١٩٤٦	٢١	١٠-٩	٤٤٤	علم الاجتماع الديني
١٩٤٦	٢١	١٠-٩	٤٤٦	أقنعة الحب
١٩٤٦	٢١	١٢-١١	٥٠٢	الغزالي وزعماء الفلاسفة (١)
١٩٤٦	٢١	١٢-١١	٥٤٨	ظهير الدين البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام
١٩٤٦	٢١	١٢-١١	٥٥٠	كريم عزقول، العقل في الإسلام
١٩٤٧	٢٢	٤-٣	١٥٦	ابن طفيل وقصة حي بن يقظان
١٩٤٧	٢٢	٤-٣	١٥٩	نظام التربية في أمريكا
١٩٤٧	٢٢	٤-٣	١٦١	الدكتور (كنوك) أو انتصار الطب

السنة	المجلد	الجزء	الصفحة	عنوان المقالة
١٩٤٧	٢٢	٥-٦	٢٧٥	شخصية الحيوان
١٩٤٨	٢٣	١	١٢٨	التقرير السنوي عن سير المعارف في العراق
١٩٤٨	٢٣	٢	٢٨٨	من عمر أبو ريشة (شعر)
١٩٤٨	٢٣	٣	٤٥٣	التربية، حقائقها وأصولها الأولى
١٩٤٩	٢٤	١	١٣٩	مؤتمر اليونسكو الثالث
١٩٤٩	٢٤	٢	١٩٧	موقفنا من الفلسفة
١٩٥٠	٢٥	٢	٢٨٩	عمر الخيام
١٩٥٠	٢٥	٤	٥٨٦	كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي
١٩٥٢	٢٧	٣	٣٢١	نظرية الخير عند ابن سينا
١٩٥٢	٢٧	٣	٤٥٩	أشباح ورموز
١٩٥٢	٢٧	٣	٤٦٠	مذكرات البارودي
١٩٥٢	٢٧	٣	٤٦٩	المهرجان الألفي لذكرى ابن سينا
١٩٥٣	٢٨	١	١٨	تعريب الاصطلاحات العلمية
١٩٥٣	٢٨	٣	٤٧٢	عبقرية العرب
١٩٥٤	٢٩	٣	٣٣٣	المدينة العادلة
١٩٥٤	٢٩	٤	٤٩٦	معاني العقل في الفلسفة العربية
١٩٥٥	٣٠	١	١٨	الحدس والفكر
١٩٥٥	٣٠	٢	١٩١	حدود العقل عند الغزالي
١٩٥٥	٣٠	٣	٤٧٦	المدخل إلى علم النفس الجماعي
١٩٥٥	٣٠	٣	٤٧٩	تحت قناطر أرسطو
١٩٥٥	٣٠	٤	٦٣٣	المفردات الأساسية للقراءة الابتدائية
١٩٥٦	٣١	١	٢٣	الاصطلاحات الفلسفية (١)
١٩٥٦	٣١	٢	١٨٧	الاصطلاحات الفلسفية (٢)
١٩٥٦	٣١	٢	٣٠٢	ابن رشد

السنة	المجلد	الجزء	الصفحة	عنوان المقالة
١٩٥٦	٣١	٣	٣٩٧	الاصطلاحات الفلسفية (٣)
١٩٥٦	٣١	٤	٥٤٤	الاصطلاحات الفلسفية (٤)
١٩٥٦	٣١	٤	٦٥٢	مستقبل المرأة العربية في البيت والمجتمع
١٩٥٧	٣٢	١	١٧١	الاصطلاحات الفلسفية
١٩٥٧	٣٢	٢	٢٦٧	الاصطلاحات الفلسفية (٥)
١٩٥٧	٣٢	٣	٤٢٨	الاصطلاحات الفلسفية (٦)
١٩٥٧	٣٢	٤	٦١٤	الاصطلاحات الفلسفية (٧)
١٩٥٨	٣٣	٢	٢٣٨	الاتجاه القومي في التربية العربية
١٩٥٩	٣٤	٢	٣٥٨	أنا والشعر
١٩٦٠	٣٥	١	١٣٣	محاضرات عن القومية العربية
١٩٦٠	٣٥	٢	٢٠٣	الاصطلاحات الفلسفية (٨)
١٩٦٠	٣٥	٣	٤٠٦	الاصطلاحات الفلسفية (٩)
١٩٦٠	٣٥	٤	٦٣٣	العلاقات العامة والفن
١٩٦١	٣٦	١	٢٤	الاصطلاحات الفلسفية (١٠)
١٩٦١	٣٦	٢	٢٢٩	الاصطلاحات الفلسفية (١١)
١٩٦١	٣٦	٤	٥٤٧	الإنتاج الفلسفي (١)
١٩٦١	٣٦	٤	٦٦٦	استقاء الأنباء فن
١٩٦٢	٣٧	١	٦٢	الإنتاج الفلسفي (٢)
١٩٦٢	٣٧	٣	٣٧٣	الاصطلاحات الفلسفية (١٢)
١٩٦٢	٣٧	٤	٥٥٤	الاصطلاحات الفلسفية (١٣)
١٩٦٣	٣٨	١	١٤	الاصطلاحات الفلسفية (١٤)
١٩٦٣	٣٨	٢	١٩٧	الاصطلاحات الفلسفية (١٥)
١٩٦٣	٣٨	٣	٣٩٣	الاصطلاحات الفلسفية (١٦)
١٩٦٣	٣٨	٤	٥٥٩	الاصطلاحات الفلسفية (١٧)

السنة	المجلد	الجزء	الصفحة	عنوان المقالة
١٩٦٤	٣٩	١	٢٧	الاصطلاحات الفلسفية (١٨)
١٩٦٤	٣٩	٢	٢٠٠	الاصطلاحات الفلسفية (١٩)
١٩٦٤	٣٩	٣	٣٧٤	الاصطلاحات الفلسفية (٢٠)
١٩٦٤	٣٩	٤	٦١١	الاصطلاحات الفلسفية (٢١)
١٩٦٥	٤٠	٢	٣٩٤	الاصطلاحات الفلسفية (٢٢)
١٩٦٥	٤٠	٤	٧٣٧	الاصطلاحات الفلسفية (٢٣)
١٩٦٦	٤١	١	١١٢	الاصطلاحات الفلسفية (٢٤)
١٩٦٦	٤١	٢	٢٢٢	الاصطلاحات الفلسفية (٢٥)
١٩٦٦	٤١	٣	٤١٢	الاصطلاحات الفلسفية (٢٦)
١٩٦٧	٤٢	١	١٨	الاصطلاحات الفلسفية (٢٧)
١٩٦٧	٤٢	٢	٢٠٢	الاصطلاحات الفلسفية (٢٨)
١٩٦٧	٤٢	٣	٤٠٠	الاصطلاحات الفلسفية (٢٩)
١٩٦٨	٤٣	٢	٢٣٧	الاصطلاحات الفلسفية (٣٠)
١٩٦٨	٤٣	٣	٥٠٩	الاصطلاحات الفلسفية (٣١)
١٩٦٨	٤٣	٤	٧٠٩	الاصطلاحات الفلسفية (٣٢)
١٩٦٩	٤٤	١-٢	١١٣	صفحة من تاريخ النقد
١٩٦٩	٤٤	٤	٧٠٠	الاصطلاحات الفلسفية (٣٣)
١٩٧٠	٤٥	١	٤١	الاصطلاحات الفلسفية (٣٤)
١٩٧٠	٤٥	٣	٤٥١	الاصطلاحات الفلسفية (٣٥)
١٩٧٠	٤٥	٤	٧٤٨	الغزالي وعلم الكلام
١٩٧١	٤٦	٢	٢٨١	الاصطلاحات الفلسفية (٣٦)
١٩٧٤	٤٩	٤	٨٩٩	فلسطين الثائرة
١٩٧٥	٥٠	١	٢٣	بين ابن سينا وابن رشد
١٩٧٧	٥٢	٢	٢٩٩	فكرة الخير عند الفارابي

* * *

رابعًا: المجلات التي نشر فيها صليبا بحوثه

١. **مجلة الحديث**. نشر فيها الدكتور صليبا المقالات الآتية:

- «جمال الطبيعة»، العدد ١، السنة ٤، كانون الثاني ١٩٣٠. ورد هذا المقال في كتاب «من الخيال إلى الحقيقة»
- «موضوع الفلسفة وتعريفها»، العدد ١٠، السنة ٥، تشرين الأول ١٩٣١. ورد هذا المقال في كتاب «علم النفس»
- «الخيال والحقيقة»، العدد ٥، السنة ٦، أيار ١٩٣٢. ورد هذا المقال في كتاب « من الخيال إلى الحقيقة»
- «العبقرية والثقافة»، العدد ٦، السنة ١١، حزيران ١٩٣٧. ورد هذا المقال في كتاب «من الخيال إلى الحقيقة»
- «الأهواء»، العدد ٨، السنة ١٢، آب ١٩٣٨
- «العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب»، العدد ١، السنة ٢٣، كانون الثاني ١٩٤٩. ورد هذا المقال في كتاب «مستقبل التربية»
- «المجتمع المتجدد»، العدد ٥، السنة ٣٢، أيار ١٩٥٨

٢. **مجلة الإنسانية** (الدمشقية). نشر فيها الدكتور صليبا المقالات الآتية:

- «علم النفس وعلم الاجتماع»، العدد ١٠، السنة ١، كانون الثاني ١٩٣٢، والعدد ١١، شباط ١٩٣٢، والعدد ١٢، آذار ١٩٣٢. وردت هذه المقالات في كتاب «علم النفس»
- «الشعور»، العدد ١، السنة ٢، أيلول ١٩٣٢
- «ابن سينا ونظرية الفيض»، العدد ١، السنة ٥، حزيران ١٩٣٥، والعدد ٢، السنة ٥، تموز ١٩٣٥. ورد هذا المقال في كتاب «من أفلاطون إلى ابن سينا»

- «عوامل الاختراع»، العدد ٦، السنة ٥، كانون الأول ١٩٣٥. ورد هذا المقال في كتاب «علم النفس»

٣. **مجلة الثقافة** (أصدرها الدكتور جميل صليبا بالاشتراك مع الأستاذ خليل مردم بك والدكتور كاظم الداغستاني). نشر فيها الدكتور صليبا المقالات الآتية:

- «الإبداع والاتباع»، الجزء ١، السنة ١، ١٩٣٣. ورد هذا المقال في كتاب «من الخيال إلى الحقيقة»
- «سحر الألفاظ»، الجزء ٣، السنة ١، حزيران ١٩٣٣. ورد هذا المقال في «كتاب من الخيال إلى الحقيقة»
- «العبقرية والثقافة»، الجزء ٥، السنة ١، آب ١٩٣٣. ورد هذا المقال في «كتاب من الخيال إلى الحقيقة»
- «نظرية ابن سينا في السعادة»، الجزء ٦، السنة ١، تشرين الثاني ١٩٣٣. ورد هذا المقال في «من أفلاطون إلى ابن سينا»
- «اللغة والثقافة»، الجزء ٩، السنة ١، نيسان ١٩٣٤
- «الحدس والخيال»، الجزء ١٠، السنة ١، حزيران ١٩٣٤

٤. **مجلة المعلمين والمعلمات (أصدرها الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد). نشر فيها الدكتور «صليبا» المقالين الآتيين:**

- «مدرسة السعادة»، السنة ٤، العدد ١، ١٩٣٤. ورد هذا المقال في كتاب «من الخيال إلى الحقيقة»
- «الاستعدادات النفسية»، السنة ٤، العدد ٢، ١٩٣٤. ورد هذا المقال في كتاب «علم النفس»

٥. **مجلة دمشق**. نشر فيها الدكتور صليبا المقال الآتي:

- «الفلسفة العربية وصفاتها العامة»، السنة ١، ١٩٤٠. ورد هذا المقال في كتاب «تاريخ الفلسفة»

٦. **مجلة المعلم العربي. نشر فيها الدكتور «صليبا» المقالات الآتية:**

- «مشاكل التعليم الثانوي»، السنة ٢، العدد ٤، شباط ١٩٤٩
- «إعداد المعلمين في سورية»، السنة ٢، العدد ٥، آذار ١٩٤٩
- «أهداف التعليم»، السنة ٢، العدد ٨، حزيران ١٩٤٩. ورد هذا المقال في كتاب «مستقبل التربية»

٧. **مجلة الإيمان: مجلة شهرية ثقافية دينية صاحبها ورئيس تحريرها المطران ملاتيوس صويتي. نشر فيها الدكتور «صليبا» المقالات الآتية:**

- «الرجل الواقعي والرجل الخيالي»، كانون الأول ١٩٥٤
- «الفيلسوف والسياسة»، العدد ٧، ١٩٥٤
- «حديث الرجل عن المرأة»، حزيران ١٩٥٥
- «النضال في سبيل الحضارة»، العدد ١، ١٩٥٥
- «صفات الرئيس الصالح»، آب ١٩٥٥
- «مديح القمح»، العدد ٦، ١٩٥٦
- «العمران المادي والتقدم الأخلاقي»، العدد ٣، أيار ١٩٥٧
- «الاتزان النفسي»، العدد ٦، ١٩٥٧

٨. **مجلة الأبحاث (البيروتية). نشر فيها الدكتور «صليبا» المقال الآتي:**

- «مستقبل الثقافة»، السنة السابعة، العدد ٣، أيلول ١٩٥٤

٩. **مجلة كلية التربية. نشر فيها الدكتور «صليبا» المقالين الآتيين:**

- «اصطلاحات التربية وعلم النفس»، السنة الأولى، العدد ١، ١٩٥٥. ورد هذا المقال في «المعجم الفلسفي»
- «إعداد المعلمين»، السنة الأولى، العدد ٢، ١٩٥٥. ورد هذا المقال في كتاب «مستقبل التربية»

١٠. **مجلة العلوم** (البيروتية). نشر فيها الدكتور «صليبا» المقالين الآتيين:

- «الاصطلاحات الفلسفية»، السنة الأولى، العدد ٩، ١٩٦٠. ورد هذا المقال في «المعجم الفلسفي»
- «الإنتاج الفلسفي في العالم العربي الحديث»، السنة ١١، العدد ١١، ١٩٦١. ورد في مقدمة كتاب «الإنتاج الفلسفي خلال المئة السنة الأخيرة»

١١. **مجلة العربي** (الكويتية). نشر فيها الدكتور «صليبا» المقالات الآتية:

- «التبادل الثقافي بين الشرق والغرب»، العدد ١، ١٩٥٨. ورد هذا المقال في كتاب «مستقبل التربية»
- «أربعة اتجاهات في تراثنا الثقافي»، العدد ١٨، ١٩٦٠. ورد هذا المقال في كتاب «مستقبل التربية»
- «التربية العربية بين القومية والعالمية»، العدد ٤٣، ١٩٦٢. ورد هذا المقال في كتاب «مستقبل التربية»
- «التعليم في البلاد العربية»، العدد ١٤٧، ١٩٧١

١٢. **مجلة النعمة** (الأرثوذكسية الدمشقية): مؤسسها البطريرك «غوريغوريوس الرابع» في عهد البطريرك «تيودوسيوس السادس». نشر فيها الدكتور «صليبا» المقالات الآتية:

- «تأملات على ساحل البحر»، السنة الأولى، العدد ٢، تشرين الأول ١٩٦٠
- «المواطن الصالح»، السنة الأولى، العدد ٨، نيسان ١٩٦١
- «التربية العربية بين الأصالة والاقتباس»، السنة الثانية، العدد ١٥، كانون الثاني ١٩٦٢
- «معنى الديمقراطية»، السنة الثانية، العدد ٦، شباط ١٩٦٢

١٣. **مجلة الثقافة** (لصاحبها مدحت عكاش). نشر فيها الدكتور «صليبا» المقال الآتي:

- «منازع الفكر العربي»، السنة الثالثة، العدد ٤، أيلول ١٩٦١. ورد هذا المقال في كتاب «مستقبل التربية»

١٤. **مجلة المعرفة** (السورية). نشر فيها الدكتور «صليبا» المقال الآتي:

- «الطابع الإنساني للقومية العربية»، السنة ١، العدد ١، آذار ١٩٦٢. ورد هذا المقال في كتاب «مستقبل التربية»

١٥. **مجلة التربية والتعليم**

١٦. **مجلة الطليعة**

١٧. **مجلة الطريق البيروتية**

١٨. **مجلة «الندوة اللبنانية»** – «Les conférences du Cénacle»

* * *

خامسًا: مقالات بإشراف جميل صليبا

١. الامتحانات العامة في سورية (محمود عودة الخطيب، ١٩٥٣-١٩٥٤)

٢. الإله عند برغسون (١٩٥٤-١٩٥٥)

٣. التعليم الريفي في سورية (محي الدين القضماني، ١٩٥٥)

٤. التعاون الثقافي بين الأقطار العربية (محمود الديبك، ١٩٥٥)

٥. المدارس الزراعية في سورية (عبد القادر ياسين، ١٩٥٥)

٦. تحضير البدو وتعليمهم في الشام والعراق (عثمان حسّون، ١٩٥٥)

٧. إعداد المعلمين في العالم العربي (ياسين الباري)

٨. دراسة مقارنة لتدريس العلوم الطبيعية في المدارس الثانوية للبلدان العربية (رسالة جامعية، محمد عدنان حجار، ١٩٥٥)

٩. اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربي (منيرة قبيسي، ١٩٥٥-١٩٥٦)

١٠. دراسة نقدية لرياض الأطفال في سورية (وداد رجب باشا، ١٩٥٥-١٩٥٦)

١١. شؤون التربية والتعليم في تونس (محي الدين توفيق، ١٩٥٥-١٩٥٦)

١٢. تعلّم أبناء اللاجئين في سورية (رسالة جامعية، فوزي الأسدي، ١٩٥٦)

١٣. المعاهدات الثقافية بين سورية والدول الأخرى (١٩٥٦-١٩٥٧)

١٤. التعليم الابتدائي في مصر (١٩٥٦-١٩٥٧)

١٥. نقابات العمال في سورية (محمد عادل الحكيم، ١٩٥٦-١٩٥٧)

١٦. التعليم في الكويت (حسين خضراوي، ١٩٥٦-١٩٥٧)

١٧. نظرية المعرفة في التفكير الإسلامي وعند الغزالي (ثريا متولي، ١٩٥٧)

١٨. التربية في الإسلام - العصر العباسي (محمد الدرويش، ١٩٥٧)

١٩. اتجاهات التربية في الوطن العربي

٢٠. تطور تعليم اللغة الفرنسية في سورية ١٩١٨-١٩٥٨ (ريمون طحّان، ١٩٥٧-١٩٥٨)

٢١. شؤون التربية والتعليم في تونس (محي الدين توفيق، ١٩٥٧-١٩٥٨)

٢٢. تحسين تدريس العلوم في مدارسنا الثانوية (١٩٥٨)

٢٣. دراسة نقدية لكتب العلوم الطبيعية للمدارس المتوسطة (مزيّن عثمان)

٢٤. تدريس الرياضيات في العالم العربي (كامل هبراوي)

٢٥. الاتحاد العلمي العربي (علياء سليط، ١٩٥٨)

٢٦. سيكولوجيا الحيوان (رسالة جامعية، عبد القادر العبيسي)

٢٧. دور الكتب الوطنية في الإقليم الشمالي (١٩٥٨-١٩٥٩)

٢٨. كونكاس بوربا (ترجمة د. سامي الدروبي، ١٩٦٣)

٢٩. استقصاء من ملاكات معلمي المدارس الابتدائية وأوضاعهم في المملكة الاردنية الهاشمية، ١٩٦٥-١٩٦٦

٣٠. الدورات التدريبية الطويلة، دروس ومحاضرات في ٩ مجلدات، مطبعة الترقي

٣١. حضارة الإنسان (تأليف رينيه ماهو، مقدمة ومراجعة صليبا، ١٩٦٨)

٣٢. غرامشي: دراسة ومختارات (ترجمة ميخائيل ابراهيم، عام ١٩٧٢)

* * *

سادسًا: المواضيع التي بحث فيها جميل صليبا

١. الفلسفة
٢. التراث الفلسفي
٣. المنطق
٤. علم النفس
٥. علم الاجتماع
٦. التربية
٧. التعليم
٨. الأدب
٩. النقد

الفصل الثالث

مقتطفات من آثار جميل صليبا

على الرغم من صعوبة الغوص في مؤلفات د. صليبا، سأحاول أن أنتقي من كتاباته ومن أعماله حكمًا وأقوالًا، بل شهادات لها مغزاها ومعانيها التي تصلح لكل الأزمنة والأجيال.

أولًا:

كَتَبَ الدكتور جميل صليبا مقدمة ضافية بعنوان: «الشعر والشاعر»، صدَّر بها ديوان «خليل مردم بك» عضو المجمع العلمي العربي ورئيسه السابق. ونظرًا لقيمة هذه المقدمة التاريخية اللغوية وبلاغتها المتميزة أُدرِجها كاملة كما وردت في ديوان خليل مردم بك.

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

ديوان

خليل مردم بك

(١٨٩٥-١٩٥٩)

هدية

المجمع العلمي العربي

بدمشق

قدم له

الدكتور جميل صليبا

عضو المجمع العلمي العربي

أشرف على طبعه وعلق عليه

ولده

عدنان مردم بك

أوّلاً

الشعر والشاعر

بقلم

الدكتور جميل صليبا

إذا ذُكر خليل مردم بك ذُكر معه الصدق، والوفاء، ولطف الأخلاق، والإباء، والمروءة. فقد كان رحمه الله زكي النفس، حسن العشرة، صادقًا في قوله وعمله، متوددًا محببًا إلى كل من يكلمه، وكان صاحب أخبار ونوادر، وله معرفة بأحوال الناس. وهو كاسمه خليلٌ وفِيٌّ، لم يقدِّم نفسه على غيره في النفع، ولا تعاطى أمرًا إلا وجاء فيه مبرزًا. وكل من أنس بصحبته اعترف بفضله، ودماثة طبعه، ومرونة تفكيره، ولين عريكته، وهو إلى ذلك قوي الإرادة، ذكي الفؤاد، مرهف الحس، جيد الحكم، واسع الخيال، حسن الثقافة، فصيح اللسان، حلو الحديث، يحب الضبط في الأفكار والدقة في المعاملات، ويكره الشذوذ والإغراب، فلا يحدثك إلا عما ترغب فيه نفسك، ويستمتع به خاطرك، يحدثك عنه في اتزان وهدوء وتأنٍ وصبر ودعة.

وإذا حدثك عن الناس لم يذكر لك من أخبارهم إلَّا ما فيه مَثَل وعبرة، لأنه على ولعه بالأخبار لا يميل إلى النقد والذم، ولا يلذ له الحديث إلا إذا كان منزهًا عن الإيذاء والنميمة. وقلما سمعته يحدثك عن نفسه وأخباره، أو عن شعره ونثره، أو عن مشكلاته وأحزانه، لأنه على رغبته في التنفيس عمّا في قلبه لا يحب أن يحزن

قلبك، ولا أن يؤذي سمعك، ولا أن يتعاظم أو يتكبر عليك. لذلك أحبه الناس وقدروا فضله لعلمهم أنه مجبول على الخير لا يؤذي نملة ولا يجرح إحساسًا، ولذلك أيضًا خلا شعره من الهجاء إلا في مواطن القدح على المستعمرين والإنحاء باللائمة على المتصاغرين أمامهم.

وكما خلا شعره من الهجاء فكذلك خلا من ذكر المجون والعبث واللهو ووصف اللذات الحسية. فهو لا يتفنن في وصف الرقص إلا ليقول إن الرقص لهو ولعب، يهون به كل صعب، ويتيسَّرُ فيه كل عسير، ولا يصف مجالس الشراب إلا ليطلب من الله أن يغفر له زلَّات الصِّبا، ويتقبل منه التوبة. وأنَّى لشاعر لطيف النفس مثله أن يتغنى بالشهوات الجامحة وأن يلوث صوره الفنية الرفيعة بأدران الوحل والدم. إن إحساسه المرهف لا يريه في الطبيعة إلا الألوان الجميلة والألحان العذبة والحركات اللطيفة، فيحدثك عن الرياض الزاهرة والخمائل الوارفة والجميم المتموج، والطيور الصدَّاحة، والغدران المائرة، ويُعرض عن الصخور الصَّماء، والبراكين الثائرة، والجبال الشاهقة، والزلازل الهوجاء، والصحارى الساكنة. وأحبُّ الفصول إلى قلبه فصل الربيع لأنه ألطف فصول السنة لانسجام ألوانه، ورقة صوره، وعبق أزاهيره، واعتدال حرارته. أما برد الشتاء وحرُّ الصيف واحتضار الطبيعة في الخريف فليس لها في شعره أثر، لأنها صور قاسية لا تستطيع نفسه اللطيفة أن تتمثلها، فهو إذن يحب الطبيعة الجميلة لا الطبيعة المخيفة. وإذا كان يصف البحر على شدته وقسوته وخوفه منه، فمرد ذلك إلى ليونة البحر وكثرة ألوانه وحركاته على خلاف الصحارى الساكنة والرمال الظامئة؛ فإنها على قربها من دمشق لم تأخذ بشغاف قلبه ولم تسترع انتباهه.

ومن عجيب أمره أن الريف البريطاني الجميل لم يستهوِ فؤاده ولا حرك شاعريته رغم إقامته فيه عدة سنين، فليس في ديوانه قصيدة واحدة تصور لندن وضواحيها الجميلة أو تصور قصورها وحدائقها ومعالم حضارتها، ولعل ذلك أن يكون ناشئًا عن جوِّ لندن القاتم وطغيان ضبابها وكثرة ضجيجها. ومن عجيب أمره أيضًا أنه لم يصور رحلة من رحلاته الجوية ولا وصف أزيز محرك الطائرة في سكون الليل ولا الأحاسيس التي يشعر بها المسافر وهو ينظر إلى الأرض من خلال الغيوم، وما ذلك إلا لأنه كان يخاف ركوب الطائرة ويفضل الأمن على الخوف، والدعة والطمأنينة على المخاطرة بالنفس.

نشأ في بيت كريم وفَّرَ له من الوجاهة ونعمى العيش ما مكنه من الاستغناء عن التكسب بعلمه وأدبه، وأعانه على تثقيف نفسه ثقافة كاملة جمع فيها بين محاسن الأدب العربي والأدب الغربي؛ فهو وجه دمشق الحق، وشاعر الغوطة الملهم، وعالم الشام الفاضل، تتمثل فيه طبائع أهل الشام على أحسن وجه وأتم صورة.

قرأ التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه على كبار علماء دمشق، ويلوح على شعره أثر اللغة والتاريخ إلى إلمام بالعلوم العقلية. وكان هواه السياسي مع القوميين حتى عرف بمناوأته للمستعمرين، وظل يقول الشعر كل أيام حياته إلا في زمن تقلده الوزارة، ولم يكن يُعنى بالسياسة عنايته بالعلم والأدب؛ قال:

أنا لست أعنى بالسياسة إنما هي نفثة من ذي جَوى منهوك

وأبواب شعره على كثرته قليلة طغى عليها باب الوصف في الطبيعة والفن، فليس له في الحكمة والرثاء والاجتماع إلا قصائد معدودة، وليس له في المدح والفخر

إلا أبيات قليلة أتت ضمن قصائده المختلفة، على أن له قصائد كثيرة في الحماسة الوطنية والنسيب وأخرى في الحنين إلى دمشق والتفجع على فراقها ذكر فيها مسارح صباه ومعاهد أنسه.

لم أجد بين شعرائنا المعاصرين شاعرًا وصف غوطة دمشق كما وصفها خليل مردم بك، فهو يصور رياض الغوطة وأزاهيرها وجداولها وخمائلها وأطيارها تصويرًا دقيقًا مفعمًا بحنان القلب وأحاسيس النفس؛ وهو يحن إليها حنين العاشق إلى معشوقه، يلقاها بوجه باسم ونفس متعطشة إلى شذا رياحينها فيشجيه عبق الزهر؛ وساجع الطير، وانسياب الغدير، وتعانق الغصون، فيقف أمام الطبيعة وقفة المسحور، يعاطيها أحاسيسه وتعاطيه صورها، ولا يصورها إلا بعد أن يغمس ريشته في مداد قلبه، ولا ينثر في سمائها أحلام نفسه وهوى فؤاده إلا ليتَّحد بها اتحاد الصوفي بمعبوده، فكأن نفسه مرآة تعكس أسرار الطبيعة، وكأن الطبيعة صورة من صور نفسه. والدليل على ذلك أنه يشبِّه صور الطبيعة بآثار النفس الإنسانية: فللزهر مقلةٌ وسنًا، وخدٌّ ناضر، وثغر باسم، وجفن حائر، وجبين يعرق ويرشح كما يرشح جبين البكر حياء، وللغصون أذرع ممدودة للتعانق، وللرياح تأوُّه، وللأطيار حركات تحكي حركات القيان الراقصة، وتغريد يشبه ألحان المغنين، كأن الطبيعة التي يصفها كائن حي له قلب يدق، وعرق ينبض، وأنفاس تتدفق.

كان يحب التجول بين خمائل الغوطة بخطًا حائرة فلا يقف إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يمتع ناظره بما يراه من صور الجمال الساحر، فلما وصف نهر بردى طاف بواديه من منبعه إلى مصبّه عدة مرات، فكان يسمع غمغمة النهر، وهزجه،

وترنيمه، ويرى انسرابه، وزبده اللجب، واستدارة مجاريه، ورشاشه المبثوث هنا وهناك كالفراش أو كثَوْل النحل أو كالوابل السحَّاح في مهب الريح، أو كعقد الدر في نحر الغانية، فأحسَّ وهو يصف هذا النهر بنفحات الروح تهب عليه، وبالنهر يمد أنامله إليه، وبالشمس ترسل أشعتها على الرياض لتلونها بأصباغها الجميلة، فانتزع من ذلك كله صورًا حسية مزجها بأحلام قلبه ورؤى نفسه.

إن لجميع الحواس أثرًا في هذا الوصف، ولكن أعظمها تأثيرًا فيه حاستا السمع والبصر لأنهما أدق الحواس ولأنهما تكشفان عما في الأشكال والحركات والألوان من توازن واتساق وانسجام.

١- فمما يدل على أثر حاسة البصر في شعر خليل مردم بك أنه إذا وصف الزهر جاءك بصور بصرية متميزة؛ فشبَّه الزنبقة بخود شمَّرت عن ساقها لتستقي الماء، أو بعذراء وضَّاءة الجبين تسربلت بغلالة من إستبرق، فكأن الزهرة في نظره فراشة بيضاء، وكأن أطباقها أنامل أو جفون طويلة الأهداب، وهو في ذلك يقول:

كم زهرة رفت فخلت فراشة ... بيضاء رق جناحها بترفق
أطباقها مثل الأنامل شبكت ... في كل كم تلتقى في مأزق
أو كالجفون طويلة أهدابها ... من ناعس ومغمّض ومحدّق

وإذا وصف الشمس عند شروقها شبه احمرارها بشعلة النار علاها سحاب من الدخان، فإذا بدت في السماء عارية أعشى سناها كل ناظر، ومسح نورها دموع الليل عن وجنة الأزهار، ولجَّ في تقبيلها حتى تحمر خدودها كما تحمر خدود العاشقين،

فكأنها مرآة لاح على صفحتها نور وجه الله، وكأن أشعتها المخترقة جسم الغيم ظُبِيٌّ دامية. إذا سفرت بَسَمَ كل شيء، وإذا احتجبت عبس الجو اكتئابًا، وبكاها من وجد بدموع المزن، وإذا ما غربت في الأفق عند المساء رأيت نهرًا من النورتموج فيه الألوان، وتتراءى من خلاله صور الأشياء كما تتراءى ظلال الراح، كأن الأفق ستار سينما، أو أشباح أفلام، أو كأنه بحر مائر، أو بركان ثائر، حتى إذا جاء الليل رأيته يزحف حبْوًا كأنه مدٌّ بحر ساكن، وكأن نجومه زهرات ذات أكمام.

٢- ومما يدل على أثر حاسة السمع في شعره أنه إذا وصف الطير أسمعك سجعه وتغريده؛ فتسمع الحمائم تهدر وتنوح كالثواكل، وتحس بتفجعها وهتافها وبكائها كأن سجعها نوح الحزين وكأن غزلها وتهدارها وقرقرتها صوت زامر ينفخ في الرقص. فمن قوله في وصف الورقاء:

ورقـــــاء ذات تفجـــــع هتفـــت ففاضـــت أدمعـــي
هاجـــت بتقطيـــع النياحـــة لـوعتـــــي وتقـــــطعي
فكأنهـــــا تبكـــي عـــلى إلـــف هنـــاك مضيـــع
في سـجعهـــــا نـــــوح الحـــــزين وأنـــــة المتوجـــع
يشـــجي علـــى علاتِـــهِ في وصـــله والمقطـــــع

ومن قوله في وصف الغوطة:

تتجـاوب الأطيـار في أفنانهـا من هاتف أو ساجـع أو صـافر
غنـت بلحـن يسـتثير لواعجًـا ويهيج من طـرب دفين ضـمائر

ومن قوله في وصف بردى:

ما مـرَّ في بقعـة إلا وخاطبهـا طـورًا بغمغمـة طـورًا بإفصـاح

في كل مرحلة لحـن فمـن هـزج إلى هـديـر إلـى تـرنيـم نـواح

ومثل ذلك كثير في شعره، إلا أن أثر حاسة البصر فيه أقوى من أثر حاسة السمع. ومع أنه كان يحب الطير ويطالع الكتب التي تصف حياتها ومواطنها وأخلاقها، فإنَّ وصفه لتغريدها أقل من وصفه لألوانها وحركاتها.

أُعجب بانسجام الحركات إعجابه بانسجام الألوان والأصوات فوصف حركات الراقصين ورفرفة الطير وكرَّه وفرَّه، وذبذبة ذيله، وتدويم الفراش صعودًا وهبوطًا وانطلاقه وتزاحمه في الفضاء، كأن الطير وهو يضرب بأجنحته النسائم راقص يرسم بحركاته الألحان فيوحِّد صور السمع والبصر ويمزجها بعضها ببعض، فمن قوله في وصف حركات الفراشتين:

أفـانين مـن الحركـات زاغـت لهـا عينـي وعـي بهـا بيـاني

فـمن ضـم إلى نشـر لوثـب لرفرفـة إلى حـرب عـوان

تحيرتـا هنـا وهنـاك طيشـًا كما في الريح حارت ريشتان

إذا مـا هبّـتا لبلـوغ قصـد بـدا لهـما فوجهتـا لثـان

وإن إحداهما انطلقت فجدت بمـتن الـريح مطلقـة العنـان

تـرى الأخـرى تزاحمهـا اعتراضًـا أفي رحـب الفضـا تتـزاحمان

٣- ومما يسترعي الانتباه أن لحاسة الشم في مواطن شعره أثرًا لا يقل عن أثر حاسة السمع كقوله:

عـبقـت في الكأس من أنفاسـها نفحة تهدي إلى النـدمان روحـا

وقوله:

يا عجبًا لطيب ريح الترب إذا تندى بدموع السحب

ونفحة في دمّر والربوة فواحة لها دبيب النشوة

دقت عن الأوصاف والأسماء لكنها رائحة الفيحاء

طاب بها التراب والهواء وعبقت بطيبها الأرجاء

فهو يحب روائح دمشق ويشعر عند شمها بالنشوة تدب في قلبه، وكم مرة ودَّ لو مرغ وجهه في تراب دمشق ليشم رائحته الزكية. لقد أعطته الغوطة كل شيء، أعطته الصور الحسية التي أثرت في خياله، وأعطته الأحاسيس والمشاعر التي صاغ فيها هذه الصور. وليس المهم أن ينتزع الشاعر صوره من الطبيعة، وإنما المهم أن يعبر عنها تعبيرًا دقيقًا يجمع بين متانة الأسلوب وسهولة اللفظ وعذوبة المعنى. وشعر خليل مردم بك في الوصف يشبه بعضه بعضًا في قوَّة التعبير وجزالة المعنى ودقة التشبيه. قيل له مرة إنك تكثر من وصف الصور الحسية ولا تصف شيئًا من الصور النفسية التي تختلج في صدرك، فقال: إني لا أصف الصور الحسية إلا لأنها رموز تعبر عن رؤى قلبي وأحلام نفسي، فهو إذن لا يتفنن في وصف الصور الحسية إلا ليطل من خلالها على صور نفسه، والدليل على ذلك أنه كان يضمّن وصفه الحسي كثيرًا من الشوق والحنين؛ كقوله بعد أن وصف البحر:

قلت للسرب وقد أقبل من أفقٍ قلبي به عانٍ رهين

أيها القاطع عرض البحر هل لك عهد بروابي قاسيون

وكقوله في وصف الغوطة:

مرآة أحلامي ومرتع صبوتي وهوى فؤادي بل ومتعة خاطري

في كل مغنى من فؤادي شعبة وبكل واد هائم من خاطري

ولعل أحسن دليل على ما ترمز إليه صوره الحسية من معان عقلية قصيدتان؛ الأولى قصيدة: (قالت لي السمراء)، والثانية قصيدة: (يا ليتني). ففي القصيدة الأولى يصف الشاعر شروق الشمس فوق البحر من البحر من وراء السحاب في يوم مطير هبت فيه الرياح الهوج وطغت أمواجه وقصف رعده وومض برقه، فيصور ألوان الأفق بعد الصحو وأشباح السحب وأشلاءها المتناثرة في السماء، ويردد ما قالت له السمراء ما بين السطور فيقول:

قد يكون اللحن والإيماء أبدى للضمير

وفي القصيدة الثانية يتكلم على نفسه فيقول:

يا ليتني لما شربت الكأس صرفًا لم أثنّ

أو ليتني لما انتشيت من المدامة لم أغنّ

أو أنني لما ارتويت تركت شيئًا للتمني

بل ليتني لما شممت الورد لم أقطف وأجن

أو ليتني لم أنتقل في الروض من غصن لغصن

إلى أن يقول:

لكنني مازلت من سحر الجمال أصوغ لحني

لي في مواكبه فؤاد ضعت منه وضاع مني

كم بت رهن هواه في كف الجمال وبات رهني

ورويــت عنــه مــن الروائــع مــا رواه النــاس عنــي
ملــك ومــن عجــب لــه في كــل نفــس ســحر جنــي
ويشــوقني أن أجتليــه علــى التمنــع والتجنــي

وهنا نلمس الميزة الأولى لشعر خليل مردم بك، وهي اتخاذه الصور الحسية وسيلة رمزية للتعبير عن رؤاه وأحلامه. أثّرت الطبيعة في خياله فأفاض عليها صورًا نفسية صبّها في الألفاظ الجميلة وصاغها كما يصوغ الخزّاف الطين، فجاءت مفعمة بسحر الجمال. إنه يعبر عن الإحساس الجميل باللفظ الجميل ولا يتصدى لتصوير القبيح أو التافه أو الخسيس

تصــباني الجــمال وفي الفــؤاد هــواه منغــرس

إنه يحب الجمال لأنه مرآة ينعكس عليها وجه الله، لا بل هو ظل الله وقبس من نوره. إنه يلمحه من وراء الصور الحسية فيبصر ألوانه بعينيه ويسمع ألحانه بأذنيه، ولكنه لا يستطيع أن يحده بما يرى ويسمع، لأن هذه الأعراض الحسية زائلة وجوهر الجمال خالد. وغاية ما يطمح إليه أن يصور هذه الأعراض لعله إذا أحسن تصويرها يستطيع أن يكشف عن جوهر الجمال الحقيقي، والجمال لا يتجلى في أنفاس الزهر وألوان الربيع وتغريد الطير فحسب، بل يتجلى أيضًا في وجه المرأة وقدها ورشاقتها وسحر عينيها، فصورة المرأة في نظره أجمل صورة في الطبيعة، سحر الجمال الحق من سحر عينيها، ووحيه من وحي جفنيها، لا بل إن رحيقها ألذ من الخمر، وأنفاسها أطيب من أنفاس الربيع. فلا غرو إذا ملأ حبها قلبه، فتغنى بجمالها ووصف حبه وشوقه إليها، وعذره في هواه أنها جميلة وأنه لا ذنب له في غرامه بها.

إن كــان ذنبــي أننــي بــك مغــرم فعــلام حســنك فتنــة للرائــي

إننا لا نعرف من هي (لمياء) التي يتغزل بها في شعره، ولكننا نلمح من وراء وصفه وغزله مشخصات ترينا أن (لمياء) فتاة مسيحية جار عليها أهلها ومنعوها من لقائه فنزحت عن دمشق، وأنه على شدة غرامه بها كان يعف عنها، فلا يجتمع بها خلسة إلا ليبثها شوقه وهيامه، ولا يضع يده بيدها إلا ليشكو إليها صبابته ولوعته، فمن هذه المشخصات قوله:

فأي كتاب بعد هذا وسنة ... تباعدني أن لا أدين بدينها
لئن فرقت كتب الديانات بيننا ... لتجمعنا صحف الهوى بغضونها
وإن حرّج الإنجيل وهو محرّف ... ففي صحة القرآن حل وضينها

وقوله:

فكأننا إذ ذاك من قطا ... يتطاعمان بروضة غناء
قد كان في طوقي بلوغ مآربي ... لولا زواجر عفة وحياء

وأكثر شعره في النسيب يرجع إلى زمان الصبا، وهو الزمن الذي تفتحت فيه قريحته عن سحر الجمال، فلما خبت نار حبه اتجه إلى الطبيعة وطرق أبوابًا مختلفة من الشعر، إلا أنه عاد إلى وصف المرأة في قصيدة عنوانها (واهًا لأيام الشباب) وهي آخر ما نظمه.

وهو يرى أن الشاعر يتلقى الوحي من سماء الخيال، فيعي سر الوجود والعدم ويمثل الصور العلوية بالألفاظ، فإذا شاهد احمرار الشفق قال هذا نجيع الشهداء، وإذا سمع هزيم الرعد قال هذا صراخ البائسين. فمن لم يكن صوغ القوافي سجية له فلا يتعب نفسه بخوض بحور الشعر، لأن ميزان الشعر هو الطبع، وسحره هو الإلهام.

فلـم يبـق بعد الوحي من نبـأ السـما إلى الأرض غير الشعر معجزة كبرى

ومتى أدرك الشاعر هذه المنزلة من السحر غمرت نفسه الطبيعة والمجتمع، فتغنى بالشعور القومي والشعورالإنساني معًا، وعمل على إصلاح حياة الإنسان. لذلك اهتم خليل مردم بك بالنواحي القومية والإنسانية اهتمامه بوصف الطبيعة، قال في قصيدة الشعر:

إذا لـم ينبـه شـاعر الـقـوم قومـه فذاك بأن يشـقى به قومـه أحـرى
أرى الشعر أنفاسًا يصرفها الفتى فيُطفي بها جـمرًا ويُذكي بهـا جمـرا
وينـفـحـها روحًا بمـيِّـت أمـة فتنسلّ من أحـداث غفلـتـها تترى

فلا يكون الشاعر شاعرًا إذن إلا إذا نبه قومه وأيقظهم من سباتهم، فذكرهم بأمجادهم القديمة وأذكى حماستهم وأطلعهم على نقائصهم. وأي فضل لشاعر عربي معاصر لا يرثي شهداء العروبة ولا يتغنى بالاستقلال ولا يدعو إلى الثورة على الاستعمار، ولا يقدس الوحدة العربية الكبرى. لقد جمع خليل مردم بك في شعره الحماسي بين هذه الأغراض كلها فبكى على الشهداء:

يا دين قلبي من يوم ورى كبـدي وطـال همـي لـذكراه وتسـهادي
في ميسلون من الأشجان سلسلة نيطـت بأطرافهـا أرجـاء أرواد
هل من سبيل إلى الإنصاف في زمـن جلـت رزايـاه عـن حصر ـ وتعـداد
في مسمع الدهر وقر من شكايتنا فهـل يصيخ إلى سـمعي وإنشـادي

ودعا إلى الثورة والنضال:

بني العروبة كم من صيحة ذهبت لـو يسـتثار بهـا المـوتى إذن ثـاروا
يا ليت شـعـري مـاذا يستـفـزكـم كم أرسلت شررًا بالقـدح أحجـار

ووصف الثورة السورية فقال:

مصيبة ميسلون وإن أمضَّت أخف وقيعة مما تلاها
فما من بقعة بدمشق إلا تمثل ميسلون وما دهاها
فسل عما تصبب من دماء تخبرك الحقيقة غوطتاها
ولم أر جنة أمسى بنوها وقود النار فائرة سواها
سأقصر فالقوافي اليوم جمرٌ أخاف على المسامع من لظاها

ودعا إلى الوحدة العربية:

فكيف ترجى جمع قيس ويعرب وشملك يا هذا شتيت مفرق
وكيف ترجى وحدة عربية ومن دون راشيًّا حدود وبيرق

فهو ينتقد الذين شغلتهم السياسة المحلية عن المطالبة بالوحدة العربية الكبرى، ويرى أن انقسام الشام إلى دول صغيرة مخالف لطبائع الأشياء، وأنه ينبغي للقائلين بالوحدة العربية أن يعملوا أولًا على توحيد أقاليمهم الصغيرة؛ فإن الوحدة لا تتجزأ، وإذا تجزأت قصرت عن بلوغ غايتها، وأنه لَمِمَّا يُحزن القلب أن ترى كل حاضرة من الحواضر العربية دارًا لمملكة مستقلة، فما علينا لو اتحدنا جميعًا في دولة عربية واحدة تضم أجزاء الوطن العربي كله.

وهو في ذلك يقول:

ماذا عسى أنكرت من جلق بل ما عسى أهل لبنان يريبهم
بلادُنا ويدُ التقسيم تعلقها كأنها رقعة ينتابها جلم
أكل حاضرة دار لمملكة أبعاد ما يبنهن الفتر والبصم

ويرد على الذين يزعمون أن اختلاف الأديان يمنع من تحقيق الوحدة العربية فيقول:

قالوا وفي الدين بون دون وحدتنا إلى متى باسم هذا الدين نقتسم

لئن أصروا على أهواء أنفسهم لا الدين يبقى ولا الدنيا ولا الشيم

فشعره الوطني يريك أنه كان يعبر عن منازع أمته أحسن تعبير، تؤثر فيه الأحداث التاريخية؛ فتارة يصف الفتح العربي، وتارة يخاطب اللجنة الوطنية العليا، وتارة يدعو إلى النضال والوحدة، وأكثر شعره الوطني يرجع إلى أيام النضال ضد المستعمرين.

ويعجبني من شعره الاجتماعي قوله في الطفل:

ولد المرء إذا أنصفته وتدبرت مربي الوالدين

ولدي شطر فؤادي إنما بك أنشا الله خلقي مرتين

وقوله في ولد الولد:

أحب أولادك من أنت له أب وجد

أسبابه أكثر في القربى وأعلى وأشد

ليس أحب من ولد للأب إلا ابن الولد

فالطفل في نظره أمل باسم، لا بل هو صورة من صور الله خطت يد الله على وجهه آيتين من الطهر والبهاء، وهو زينة العيش، والساعد المسعد والعون المرتجى، ومن حق آبائك في إحسانهم إليك أن تربي طفلك تربية صالحة.

على أن عناية خليل مردم بك بأسرته لم تكن أشد من عنايته بإصلاح الفساد الاجتماعي. مارس التعليم عدة سنين فنشأ تلاميذه على تذوق الجمال والحق والخير،

ودعا إلى تهذيب الفتاة، وذم من يتمسك بالقشور من رجال الدين، وانتقد العادات الفاسدة، ونادى بضرورة الأخذ بما جاء في الحضارة الغربية من قيم صالحة.

وشعره الاجتماعي متصل بشعره الإنساني، أثَّرت فيه حوادث الحرب العالمية الأولى فوصف الجوع والفقر والمرض، وشكا الدهر، وصوَّر المحزون والبائس واليتيم والأعمى، وتكلم على الحرية والحق والإنصاف والسلام. ومن أحسن ما قاله في الحرية مخاطبًا (شهيد إيرلندا):

كأنك من ذوي قرباي لما رثيتك باكيًا نظمًا ونثرًا
ولم تك ذا ولاء في معدّ ولم تبلغ بك الأجداد فهرا
ولكني بكل فتى كريم أخي ثقة عزيز النفس مغرى
فنبئني أعيش المرء خير بذل أم رداه فأنت أدرى
إذا كانت حياة المرء أسرًا فإن الموت بالأحرار أحرى

ومن قوله في وصف المحزون:

ورأى الظالم لا يرقب في المظلوم ذمه
فبكى حزنًا لمن عُرِّيَ عن عدل ورحمه
وعلى من بشديد الجور والظلم مُنِي

* * *

قال ياذا المال ما في المال لي من مطمع
أي شيء هو أغلى من لآلى الأدمع
هل رأت عيناك درًّا غيرها في الأعين

فالدموع عنده أغلى من المال لأنها تكشف عن ظلال المحن وثروتها لا تنفد، والظالم الذي لا يرعى ذمامًا أشقى من المظلوم.

ومن شعره الإنساني قول في قصيدة عنوانها إغاثة البائس:

صنع الجميل وفعل الخير إن أثرا أبقى وأحمد أعمال الفتى أثرا

لو أعوز المال أصحابي سقيتهم دمي ولست على العلات معتذرا

ما راض جامح نفسي للقريض سوى معنى الحنان ومعنى البؤس إذ خطرا

ومثل ذلك كثير في شعره، إنه يعارض الحكم بالإعدام لأنه قتل

وقاتل النفس لو صحت عدالته كمن يداوي بفقء المقلة الرمدا

وليس يملك فك الروح عن الجسد إلا الذي خلقها. وإذا كان الإنسان يظلم أخاه الإنسان فمردّ ذلك إلى الشر المندرج في طبيعة الوجود. ومَن خبر دهره ازداد شؤمًا على شؤم، إلا أن الشاعر لا يستسلم لليأس، بل ينقذ نفسه من التشاؤم بالالتجاء إلى رحمة الله، لأن الله خير، واليأس من رحمته كفر. إننا لا نعرف الله إلا بآثاره؛ فهو المصور المنشئ، وهو المبدع والمبقي، ولكننا لا نعرف حقيقته، ولا حقيقة الروح والحياة، ولا معنى الوجود والعدم، ولا معنى الجبر والاختيار، وغاية ما يطمح إليه الشاعر أن يعبر عما بعلمه بالذوق لا بالنظر العقلي:

الذوق والوجدان والمعقول والحب آيات سمت وفصول

أما الجمال فإنه تمثيل يدنو به التفسير والتفصيل

عرض صفا فأضاء منه الجوهر

هل فاز بالإيمان من لم يجحد فالعين لا تغفو إذا لم تسهد

لم يدر معنى الخفض من لم يجهد والماء لا يلتذه غير الصدي

والفجر من خلل الدياجي يسفر

وهكذا يصور لنا الشاعر تجربته الفلسفية وشكه في حقيقة الروح وفوزه بالإيمان بعد الشك واعتماده على الذوق والوجدان في إدراك حقيقة الجوهر. وإذا اعتمد الشاعر على الذوق أدرك أن العالم كله ديوان شعر، وأن صوره الحسية رموز وأعراض يتلألأ فيها الجمال، وأن الكائنات جميعها تصلي لله وتسبح، وأن الشعر إلهام وغناء وسحر.

لقد ظل خليل مردم بك يتغنى بسحر الجمال كل أيام حياته، فلم ينقطع عن الغناء إلا في فترات معدودة، وهي فترة إقامته في لندن وفترة حزنه الشديد على وفاة ولده، وفترة تقلده الوزارة، ولكنه كان خلال هذه الفترات يملأ قلبه من الإحساسات والتجارب حتى إذا تخمرت نظمها في سلك من اللآلئ الجميلة.

وبواكير قصائده تريك أنه كان ينحو منحى المتنبي ويترسم خطاه، وهو شديد الإعجاب بالبحتري يشبهه في بعض قصائده من حيث دقة الوصف، وكأن حبه للجزالة والسمو أغراه بتخير القوافي الجميلة والتراكيب الفخمة، ونَفَسُهُ في قصائده كامل الاعتدال لا هو بالقصير ولا هو بالطويل، على أن تأثره بالأدب الغربي جعله يحافظ على وحدة القصيدة وترتيب معانيها، وقلما قال الشعر ارتجالًا أو عفوًا، بل الشعر الذي تقرأه في ديوانه يدل على جهد طويل، وتخمر بطيء وتأمل مبدع، لا يخرج قصيدته إلا بعد أن يصقلها ويرتب مقاطعها ويتخير لها أحسن الألفاظ فتجيء غاية في المتانة والرقة.

والجميل في شعره أنه يدل على أخلاقه وشخصيته، وينم على طبعه ولطف نفسه؛ فهو لا يتكلف النظم ولا يقول الشعر إلا للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره، وإذا كلّف النظم في بعض المناسبات ولم يكن عنده ما يقوله امتنع عن القول.

وكان على نبل أسرته ويساره وعلمه وأدبه وشاعريته زاهدًا في الاعتداد بالنفس يغلب عليه الجد والتصاون، فلم يكن مختالًا ولا فخورًا، ولا سبابًا ولا طعانًا. ولعل غلبة الجد عليه جعلته شديد الكتمان، شديد الانطواء على نفسه، كأن هناك صراعًا عنيفًا بين باطن حياته وظاهرها، بين الانفعالات الشديدة التي تحتدم في نفسه، والدعة والأناة واللطف والتواضع التي يظهرها لمحدثه، فأدى هذا الصراع العنيف إلى ظهور علامات الشيخوخة عليه، وهو لا يزال غض الشباب، فمن قوله في الشيب الذي علا رأسه:

حناني الوجد حتى خلتني حـــزت الثمـانينـــا
وشـــاع الشـــيب في رأسي ولـــم أبلـــغ ثلاثينـــا

وقوله:

كأنما الشعرات البيض إذ سطعت شهب لقد رجمت دوني الشياطينا
إن الشبيبة نار إن خبت تركت من المشيب رمادًا ثابتًا فينا

وانضاف إلى ذلك كله محن كثيرة أدت إلى اعتلال صحته وهو لا يزال في ميعة الصبا، فظل كل أيام حياته نحيلًا ضعيف القوى حتى أدركته الوفاة. وكان خلال مرضه الأخير - كما كان دائمًا - صابرًا مؤنسًا، متزنًا هادئًا، هاشًّا باشًّا كريمًا، لطيف النفس، مؤمنًا بالله، متفائلًا بالخير.

الدكتور جميل صليبا

ثَانِيًا:

إنَّ تواضُع الدكتور صليبا وإنسانيته وعطفه على الإنسان والعامل بوجه خاص تَبْرز في كثير من آرائه ومقالاته، وهاك أيها القارئ الكريم واحدة منها بعنوان «موسيقا العمل»:

موسيقا العمل

لا أريد أن أحدثك أيها القارئ عن الأناشيد التي يغنيها العمال ليستعيدوا بها قواهم المفقودة. إن هذه الأناشيد لا تغسل الدم ولا تعيد إلى العمل جماله وقدسيته.

لقد سمعت هذه الأناشيد في طفولتي يوم كنت أقف إلى جانب والدي أنظر إلى العمال وهم ينقلون التراب بسلاتهم البالية. وسمعت هذه الأناشيد في الحرب العامة حينما كنت أخرج من المدرسة مساء فأصادف الجنود على محطة القطار ينقلون أكياسهم وأمتعتهم القاتمة. وسمعت هذه الأناشيد على مرفأ الإسكندرية وأنا أنظر الصعيديين ينقلون صناديق الخشب والحديد على رؤوسهم.

لن أحدثك عن هذه الأناشيد لأنها تحزنني، وتمثل لي في كل نبرة من نبراتها صورة من صور البؤس والفقر. إن الموسيقا التي أريد أن أحدثك عنها لا تسمع بالأذن بل تدرك بالعين. إن منشديها لا يعزفون على قانون ولا قيثارة ولا عود. إن آلاتهم ليست من خشب، بلى هي من حديد. انظر إلى حركات هذا الرجل المفتول

الساعدين، إن يديه لتتلاقيان وتتباعدان. إن بعض حركاته أفقي وبعضها عمودي. وهو يحنو على آلته كما يحنو الموسيقار على قيثارته. ثم انظر إلى جاره كيف يتقرب منه ويتبعد عنه. إنه رشيق الحركات، جيد اللفتات. كأن المطرقة التي بيده ريشة، وكأن الدولاب الذي أمامه عود. ثم تأمل حركات جارهما إنه يلتفت ذات اليمين وذات الشمال، كأن قلبه موزع بين آلتين يكبس بيده اليسرى على زر، ويحرك بيده اليمنى عقربًا. ثم تأمل حركات العمال الآخرين، كيف يتداخل بعضها في بعض، وكيف تتسق كما تمتزج أصوات المغنين وتنسجم. إن العمال صامتون ولكن حركاتهم تغني.

إني لأرى في حركاتهم المختلفة كثيرًا من الألوان، كأن حركات بعضهم بيضاء، وحركات بعضهم حمراء، وحركات الآخرين زرقاء وصفراء.

لو كانت حركاتهم مختلفة فقط، لما كان في عملهم جماله، إلا أن حركاتهم مختلفة ومتشابهة، متباينة ومتجانسة، منفصلة ومتصلة، مفترقة ومنتظمة، تقلب خيال المهندس الجاف إلى حقيقة محسوسة متلألئة، والمثال الكلي المجرد إلى صورة مشخصة، فيتألف من اجتماعها وانسجامها جمال صناعي لا وجود له في الطبيعة.

إن المهندس لموسيقار عظيم، وإن تصميمه لأنشودة ساحرة. المهندس يتصور ألحان العمل من غير أن ينشدها، والعامل يرسم حركات الآلات من غير أن يبدعها.

مالي وللمهندس والعامل. إني أرى فيهما رمزين حِسِّيَّين لفكرة واحدة مجردة.

هل نظرت إلى ذلك المهندس الذي يسيّر عماله كما يسيّر الموسيقار أفراد الجوقة؟ ما ألطف حركاته وما أجمل نبراته. إن حركات جميع العمال متصلة به متحدة فيه. فهو إذن كل في كل، لا بل حياة في فكر، وخيال في حقيقة، يزن الحركات ويوزعها ويدقق

فيها ويجمعها؛ إنه نفس محركة وعقل مدبر. لولاه لكان المعمل مادة بدون صورة وجسمًا بلا روح.

إن هؤلاء العمال أيها القارئ لا يعملون لمالٍ ولا لجاه، بل يعملون للعمل وحده، ليس لأحدهم فضل على الآخر من حيث إنتاج الجمال، كلهم أحرار لأنهم يعملون عن إرادة، كلهم فرحون لأنهم عادلون، كلهم سعداء لأنهم أحرار.

إني لأستمع لأناشيدهم بكل نفسي، وأصغي إلى نبراتهم بكل عقلي. كلما انقسم العمل زاد في عيني جمالًا وكلما انسجمت أجزاؤه واتحدت زاد في نظري كمالًا.

إن هذه المعزوفات الهندسية ليست على نمط واحد كالأناشيد التي كنت أسمعها من الجنود. إن هذه الألحان ليست بسيطة كالألحان التي سمعتها من الصعيديين، إنها مركبة متداخلة، صاعدة هابطة، وإن في انتظامها لجمالًا.

هل تدري أين تستطيع أن تسمع الموسيقا الخفية؟ إنك تسمعها في المعمل المنظم، حيث يقوم كل عامل من العمال بجزء متمم للعمل الذي يقوم به الآخر، حيث تتحد هذه الاجزاء المختلفة، لتؤلف كلًّا متسقًا متزنًا، تذكرك صورته الفنية بأحسن الأنغام الساحرة.

هناك في المعمل تستطيع أن ترى الجمال بين الحديد والنار.

هناك في المعمل تستطيع أن ترسم صورة الخير بالأشكال المنتظمة والصورة المتسقة والألوان المنسجمة.

هناك في المعمل تستطيع أن تدرك الكمال عن طريق الإبداع والحرية.

* * *

ثَالِثًا:

في سنة ١٩٤٩ نشر الدكتور صليبا في الجزء الثاني من المجلد الرابع والعشرين لمجلة المجمع العلمي العربي مقالًا بعنوان «موقفنا من الفلسفة»، قدَّم له بتوطئةٍ عامة قال فيها:

«لم يمض على نقل العلوم الفلسفية إلى اللغة العربية إلا القليل حتى عكف العرب على شرح معانيها والنسج على منوالها، فأبدعوا لأنفسهم فلسفة خاصة مشبعة بعقائدهم الدينية، وميولهم الاجتماعية والسياسية، ثم نُقلت هذه الفلسفة إلى الغرب، وسيطرت على التفكير الأوربي حتى نهاية القرن الخامس عشر.

إلا أن الدولة العربية لما غُلبت على أمرها، وتسلط عليها الأتراك والبرابرة، ركدت بها ريح العمران، واضمحلت منها حرية الفكر، واتُّهم الفلاسفة في صدق إيمانهم وصحة عقيدتهم، وحاربتهم الخاصة والعامة. فالغزالي هدم فلسفة ابن سينا، واتُّهم صاحبها بالكفر والزندقة، وابن رشد نُكب في المغرب وأُحرقت كتبه... وابن خلدون نفسه كتبَ فصلًا هامًّا في إبطال الفلسفة وفساد منتحليها. ومازال العلماء والمحدثون ينتقدون الفلاسفة، حتى صارت كلمة فلسفة مرادفة في أذهان العامة للثرثرة والتمويه والإلحاد، والفيلسوف عندهم هو الرجل الذي يلوك الكلام ويأتي بالأفكار الشاذة، ويعرِّض نفسه للهزء والسخرية. ولم تستردَّ الفلسفة بعض ما فقدته من الرواج والانتشار إلا في أيامنا الأخيرة، إذ عكف المترجمون على نقل كتبها من اللغات الأوربية الحديثة، وأخذ الكتَّاب والعلماء والمثقفون يعنون بها عنايتهم بفروع

العلوم الأخرى. وكان من نتائج ذلك أن اتسعت الحركة الفلسفية في العالم العربي الحديث، وأقبلت الصحف والمجلات على نشر المقالات الفلسفية، ومال القراء إلى مطالعة ما يفهمونه، وما لا يفهمونه منها...»

ثم عرض صليبا موقفنا من الفلسفة العربية فقال:

«لا شك أن الإعراض عن الفلسفة العربية القديمة ليس في مكنتنا، لأن هذه الفلسفة قد نفذت إلى نفوسنا، وبدَّلت أفكارنا وعقولنا. وهي فلسفة عقلية وتوحيدية وروحانية معًا. من مبادئها الأساسية أن الحقيقة الدينية لا تختلف عن الحقيقة الفلسفية، وأن الحكمة هي صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة...

ولا شك أيضًا في أن الأخذ بالفلسفة العربية بأصبارها لا يتفق ومبادئ العلم الحديث. ففي الفلسفة العربية أمور كثيرة لا تصلح لتوجيه تفكيرنا ولا لتنظيم حياتنا المعاصرة.

لذلك كله كان من العبث الأخذ بالفلسفة العربية القديمة بأصبارها. إن هذه الفلسفة يجب أن تُدرس كما تُدرس سائر الاتجاهات الفكرية القديمة لا للإفادة منها في توجيه سلوكنا، ولكن لاستكمال ثقافتنا الفكرية، واطلاعنا على ماضينا وتعريفنا بأنفسنا، وتوضيح تطور أفكارنا. فإذا شئنا أن تكون لنا فلسفة عربية حديثة تأتلف وميولنا، وحاجاتنا الحاضرة، وجب علينا أولًا دراسة الفلسفة العربية دراسة تاريخية لتأمين الاتصال بين اتجاهاتنا الفكرية الحديثة وعبقريتنا القديمة...

فموقفنا من الفلسفة العربية القديمة يجب أن يكون إذن موقفًا علميًّا محضًا، ونعني بهذا الموقف العلمي أن تاريخ الأفكار يجب أن يطلب لذاته، لا لعبره وفوائده...

هناك أمران يحددان لنا هذا الموقف العلمي: الأول هو التعريف بالفلسفة العربية، والثاني هو نقدها وتحليلها...»

وأما عن موقفنا من الفلسفة الغربية، فيقول صليبا:

«لا بد لنا هاهنا أيضًا من اتباع الطريق الذي سلكناه في تحديد موقفنا من الفلسفة العربية وهو: التعريف بهذه الفلسفة أولًا، ثم نقدها وتحليلها.

ينبغي لنا أولًا ترجمة أمهات الكتب من الفلسفة اليونانية القديمة، كفلسفة أفلاطون وأرسطو وغيرها. إن الكتب العربية القديمة المترجمة عن اليونانية كثيرة الإبهام والتعقيد... فقد حُكي عن الفارابي أنه قرأ كتاب النفس لأرسطو مئتي مرة من غير أن يفهم ما فيه... ومن نظر في كتاب (فاطيغورياس) الذي ترجمه حنين بن إسحق وجد فيه من الغموض وركاكة الأسلوب ما يدعوه إلى قراءته عشرات المرات...

وينبغي لنا ثانيًا أن نترجم أمهات الكتب من الفلسفة الغربية الحديثة ككتب لوك وديكارت وليبنيتز واسبينوزا وهيوم وكانْت وسبنسر وهيجل وشوبنهاور وأغوست كونت ونيتشه وبرغسون وغيرهم. إن هذه الترجمة ضرورية لنا اليوم أكثر من الدراسات التحليلية المقصورة على التعريف بالفلاسفة الغربيين...

ومن شروط الترجمة أن تُنقل الكتب من اللغة الأصلية التي كُتبت فيها، لأنها إذا نُقلت عن لغة ثانية كان ذلك باعثًا على غموض الأفكار وتحريفها وبُعدها عن الضبط. دعْ أن المترجمين لا يحسنون الاختيار، فيترجمون ما يصل إليهم من الكتب على غير هدًى من غير أن يكون لها قيمة حقيقية...

فمن الضروري إذن وضع برنامج واسع لترجمة الكتب، تتولى اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية الإشراف عليه، ثم توزِّع العمل على المختصين في مختلف الدول العربية لتنفيذه وإنجازه...

وقد يقال إن في العالم الغربي أنواعًا من الفلسفة لا تأتلف وعبقرية الأمة العربية، وإن نقل هذه المذاهب إلى لغتنا قد يؤدي إلى استهواء الكثير من الناس، وإدخال الفوضى على العقائد الموروثة. فنقول ردًّا على ذلك: إن نقل المذاهب المختلفة لا يؤدي بالضرورة إلى الأخذ بها؛ ففي الفلسفة الأوربية مذاهب روحانية ومذاهب مادية، كما أن فيها مذاهب خيالية ومذاهب وجودية، وهي تتهافت ويهدم بعضها بعضًا كما تتساند وتتعاون. فإذا تُرجمت كلها معًا استطاع القارئ العربي أن يقارن بينها، وأن ينقدها ويحللها ويكوّن لنفسه بعد ذلك رأيًا شخصيًّا فيها... أضف إلى ذلك أن الفلسفة الغربية ليست مضادة لعبقريتنا، فهي قد تولَّدت من الفلسفة اليونانية كفلسفتنا القديمة، وكان للفلسفة العربية نفسها أثر عميق في نشأتها... إن القديس (توما الأكويني) و(غيوم دوفرني) و(روجه باكون) قد أخذوا كثيرًا عن ابن سينا وابن رشد، حتى إن إعجاب (غيوم دوفرني) بهما كان لا يقل عن إعجابه بأرسطو...

وجملة القول: ينبغي أن يكون موقفنا من الفلسفة الغربية كما كان موقف أجدادنا من الفلسفة اليونانية. وهو موقف إيجابي يدعو إلى ترجمة الفلسفة الغربية والأخذ بكثير من مسائلها، ثم تأليف عناصرها في قوالب عربية مستوحاة من ماضي الأمة وحاضرها».

وختم صليبا مقاله بالحديث عن موقفنا من الفلسفة بصورة عامة فقال:

«وهاهنا إشارة لا بد من ذكرها في آخر هذا المقال، وهي أنه ينبغي لنا في كل ذلك أن نتجنب التقليد المحض. إن مجلاتنا الشهرية طافحة بالمقالات الفلسفية، كما أن دور النشر تصدر في كل شهر كتابًا فلسفيًّا موضوعًا أو مترجمًا، إلا أن هذه الزيادة في الإنتاج لا تدل على إبداع حقيقي، لأنها زيادة وهمية مبنية على التقليد. لقد أصبح البحث في المسائل الفلسفية عندنا زيًّا من الأزياء. وقلما وجدت كاتبًا لم يكن له في هذا الباب باع

طويل. وهذه الظاهرة تدل على أن القارئ العربي يرغب اليوم في مطالعة الموضوعات الفلسفية بالرغم من اضمحلال الفلسفة، وزوال رسومها من ربوعنا. ولكن معالجة هذه المسائل لا تتعدى الآن طور التقليد الأعمى. إننا نقلد الغربيين في كل شيء، نقلدهم في الأزياء كما نقلدهم في الأفكار والعواطف. نعم قد يكون التقليد ضروريًّا في المراحل الأولى من الحياة الفكرية، إلا أنه إذا طال أفقد الفكر روعته وإبداعه، فإذا شئنا أن تكون لنا فلسفة عربية حديثة دالة على عبقريتنا وجب علينا أولًا أن تنجنب التقليد الأعمى، وأن نسمو إلى يفاع الاستبصار والإبداع.

وهذا لا يمنع من أن يكون في العالم العربي فلاسفة مقلدون يذهبون إلى ما ذهب إليه ابن رشد أو يقولون بما قال به ابن خلدون أو يعتنقون مذهب كانْت أو سبنسر... إلا أنه ينبغي أن يوجد إلى جنب هؤلاء التابعين فلاسفة آخرون مبدعون يقتبسون العناصر من هنا وهناك ويصوغونها في قوالب جديدة. والشرط اللازم لهذا الإبداع هو في نظرنا فك الفلسفة من عقالها، وإطلاق حريتها، وتجريدها من القيود التقليدية والضغط الاجتماعي. وليس في إطلاق حرية الفلسفة أي خطر على الدين، لأن الإيمان أقوى من أن يتصدع بمعاول العقل، لا بل قد يكون في هفوات العقل تأييد له ورجوع إليه. وما الفلاسفة إلا شعراء يصوغون مادة العلم في قوالب العقل، كما ينسج الشعراء رموزًا ومجازات ورؤًى وأحلامًا مقتبسة من الطبيعة. فإذا نظرنا إلى الفلسفة هذه النظرة الفنية أمكننا أن نحلها دار الأمان، وأن نتغاضى عن المتفلسفين كما نتغاضى اليوم عن الشعراء.»

جميل صليبا

* * *

رابعًا:

وفي مقال تحت عنوان «تعريب الاصطلاحات العلمية»، نُشر في عام ١٩٥٣ في الجزء الأول من المجلد ٢٨ لمجلة المجمع العلمي العربي، يتحدث صليبا عن مزايا اللغة العربية، وترجمة المصطلحات، وموقف مجامع اللغة العربية منها، ثم يختم حديثه بذكر أربع قواعد لوضع الاصطلاحات العلمية؛ فيقول:

«اللغة العربية من أغنى اللغات، وأوسعها اشتقاقًا، وأدقها تعبيرًا؛ صقلتها القرائح والعقول في الماضي بضعة عشر قرنًا حتى جعلتها لغة الشعر والخطابة، واصطنعها العلماءُ في مفردات الطب والكيمياء والرياضيات والفلسفة حتى جعلوها لغة العلم والثقافة.

والسبب في اتساع اللغة العربية لجميع الاصطلاحات العلمية أنها لغة غنية كثيرة المرونة، لطيفة المخارج، فيها ألفاظ متباينة، ومتفقة، ومترادفة، ومشتقة. وربما وُجدت فيها أيضًا ألفاظ مختلفة دالة على معانٍ متقاربة، وإن كانت أشخاص تلك المعاني مختلفة، وربما دلّت على أحوال مختلفة، ولكنها مع اختلافها هي لشخص واحد.

ولكن هذه المرونة في دلالة الألفاظ – على فائدتها – لا تخلو في بعض الأحيان من الالتباس والإشكال، ولا من الغلط والخطأ في التعبير. لأن الأصل في الكلام هو أن تختلف الألفاظ بحسب اختلاف المعاني. ومن حق المعنى، كما قال الجاحظ: أن يكون الاسم له طبقًا، وألا يكون له فاضلًا ولا مفضولًا، ولا مقصِّرًا ولا مشتركًا ولا مضمّنًا.

ولكن العلماء الذين أخذوا في عشرات السنين الأخيرة يدونون علوم العصر، وينقلونها من اللغات الأوربية إلى اللغة العربية لم يتقيدوا بهذا الأصل الذي قدمناه، بل مالوا إلى استعمال الألفاظ المترادفة للدلالة على المعنى الواحد، أو إلى استعمال اللفظ الواحد للدلالة على المعاني المختلفة، فعرض لهم من الخلاف في المعاني ما عرض للشعراء والخطباء وأصحاب السجع من استعمال الألفاظ المترادفة والمتواطئة، وإن كانت متباينةً بالحقيقة. فأدَّى فعلهم هذا إلى الإلباس والإشكال، وإلى كثير من الغلط والخطأ. مع أنهم كان ينبغي لهم إذا وجدوا ألفاظًا مختلفة متقاربة المعاني أن ينظروا فيها ويبحثوا عن السبب في اختلافها ليضعوا لكل معنًى لفظًا مطابقًا له، إلا أنهم قلَّدوا في ذلك البلغاء والشعراء والخطباء، فجاءت اصطلاحاتهم كثيرة الغموض وعلومهم قليلة الوضوح والضبط.

والدليل البيِّن على أن الأمر على ما ذكرناه أن الشخص الواحد يستعمل للدلالة على المعنى الواحد ألفاظًا مختلفة فيترجم كلمة (Déduction) تارة بالاستدلال وأخرى بالاستنتاج أو الاستنباط، ويستعمل اللفظ الواحد للدلالة على المعاني المختلفة فيترجم كلمات (Intelligence) و (Raison) و (Bon sens) كلها بكلمة عقل...

إن التفاهم بألفاظٍ متبدلة المعاني أصعب من التعامل بنقودٍ متبدلة القيم؛ فلا بدَّ للعلماء إذن من الاتفاق على معاني الألفاظ، ولا بدَّ لهم أيضًا من تثبيت الاصطلاحات العلمية حتى لا تتبدل الحقائق بتبدل الألفاظ التي أُفرغت فيها. إن الألفاظ حصون المعاني، وتثبيت الاصطلاحات العلمية هو الحجر الأساس في بناء العلم. فإذا أُقيم هذا البناء على أساس متحرك لم يبلغ الغاية التي أنشئ من أجلها...

وربما كانت الألفاظ التي يستعملها المترجمون المحدثون أكثر الألفاظ احتياجًا إلى هذا التحديد، لأنهم لا يطلقون على المعنى الواحد لفظًا واحدًا. مثال ذلك أن بعضهم يترجم كلمة (Intuition) بكلمة حدس، ويترجمها الآخر بالبداهة أو الاكتناه أو الاستبصار، وكذلك كلمة (Conscience) بعضهم يترجمها بالشعور وبعضهم يترجمها بالوعي. فإذا استمر الأمر على هذه الحال أدَّى إلى كثير من الفوضى والاضطراب...

والوسيلة الوحيدة للتوجيه الصحيح تقتضي إنشاء مجمعٍ علمي واحد ينتقي من الاصطلاحات التي اهتدى إليها النقلة المختصون اصطلاحًا واحدًا يثبته ويحله حظيرة العربية، لا أن يضع هو نفسه اصطلاحًا علميًّا جديدًا. ذلك لأنه ليس من شأن المجامع العلمية أن تضع الاصطلاحات، وإنما هي بمثابة عضو رئيسي في جسم العلم، ينقح ما يكشفه العلماء ويمحصه وينظمه ويثبته. وإذا خرجت المجامع العلمية عن هذا الحدِّ الذي يجب عليها أن تقف عنده عرضت نفسها لكثير من الخطأ والغلط والنقد...

والسبيل الواضحة والطريقة الصحيحة التي يجب على المختصين اتباعها في وضع الاصطلاحات العلمية الموافقة تنحصر عندنا في القواعد الآتية:

القاعدة الأولى: هي البحث في الكتب العربية القديمة عن اصطلاح مستعمل للدلالة على المعنى المراد ترجمته. ويشترط في هذه القاعدة أن يكون اللفظ الذي استعمله القدماء مطابقًا للمعنى الجديد...

والقاعدة الثانية: هي البحث عن لفظ قديم يقرب معناه من المعنى الأوربي الحديث، فيبدل معناه قليلًا ويطلق على المعنى الجديد...

والقاعدة الثالثة: هي البحث عن لفظٍ جديد لمعنًى جديدٍ مع مراعاة الاشتقاق العربي... وهذا شبيه بما فعله القدماء... ولكن اللغويين المحافظين منا لا يريدون أن يخرجوا من قفص المعاجم، كأن الألفاظ التي اصطنعها علماؤنا القدماء في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والطبيعيات لم توضع إلا اعتباطًا.

والقاعدة الرابعة: هي اقتباس اللفظ الأجنبي بحروفه على أن يصاغ صياغة عربية... ومن البديهي أنه لا ينبغي لنا العمل بهذه القاعدة إلا عند عجزنا عن اشتقاق لفظٍ عربي للدلالة على المعنى الجديد...

هذه أربع قواعد ذكرناها على سبيل الإشارة لا على سبيل الإحاطة...».

الدكتور جميل صليبا

* * *

خَامِسًا:

كتبَ الدكتور صليبا في مجلة المجمع العلمي العربي سلسلةً من المقالات بعنوان «الاصطلاحات الفلسفية»، بلغ عددها ٣٦ مقالًا، نُشر أولها في الجزء الأول من المجلد الحادي والثلاثين (١٩٥٦م)، وآخرها في الجزء الثاني من المجلد السادس والأربعين (١٩٧١م). ثم جمعَ صليبا المصطلحات التي عرضها في هذه المقالات واستكملها، وجعلها في كتاب من جزأين سمَّاه (المعجم الفلسفي). يُعد هذا المعجم من أهم إنجازات صليبا، ووصفه الدكتور عبد الكريم زهور عدي بأنه «أول محطةٍ كبرى في عصرنا على طريق تثبيت المصطلح الفلسفي».

ورغبةً منا في إطلاع القارئ الكريم على طبيعة تناوُل صليبا لهذه المصطلحات نعرض فيما يلي الصفحاتِ الثلاثَ الأولى من المقال الأول، وفيها مقدمة عامة يليها المصطلح الأول من المصطلحات الفلسفية وهو (الأبد)، ثم نعرض الصفحتين الأخيرتين من المقال السادس والثلاثين وفيهما المصطلح الأخير وهو (الفلسفة):

مجلة المجمع العلمي العربي

دمشق

١ كانون الثاني سنة ١٩٥٦ م
١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٧٥ هـ

الاصطلاحات الفلسفية

- ١ -

يشتمل هذا المقال على اصطلاحات فلسفية جمعناها من كتب الفلاسفة وكتب الحدود والتعريفات ومعاجم اللغة وقواميس الفلسفة،وبيَّنا اختلاف معانيها باختلاف الفلاسفة الذين تداولوها، وذكرنا إلى جانب كل لفظ ما يقابله من الألفاظ اللاتينية والفرنسية والإنكليزية. فنرجو أن يجد إخواننا في هذه الألفاظ المحددة المعرفة بغيتهم، وأن يبينوا رأيهم فيها لعلنا نستطيع بعد الاطلاع على آرائهم أن نتمم تعريفاتنا، ونوحد اصطلاحاتنا. فإن الاتفاق على اصطلاحات واحدة يفهم بها بعضنا عن بعض ضروري لنا في بداية نهضتنا العلمية الحديثة. وهو في نظرنا لا يقل خطورة عن الاختراع العلمي نفسه. فالألفاظ حصون المعاني، والاصطلاحات نصف العلم، وكل علم ليس فيه اصطلاح ثابت محدد، إنما هو علم ناقص مبدّد.

الأبد

في اللاتينية Aeternitas

في الفرنسية Eternité

في الإنكليزية Eternity

الأبد في اللغة: الدهر والدائم والقديم والأزلي، والجمع: آباد وأبود. وهو في الاصطلاح: الزمان الذي ليس له ابتداء ولا انتهاء، أو المدة التي لا يتوهم انتهاؤها بالفكر والتأمل، أو الشيء الذي لا نهاية له.

والفلاسفة يفرقون بين الأبد الزماني والأبد اللازماني.

فالأبد الزماني هو المدة التي ليس لها حد محدود في الماضي والمستقبل، أو الزمان الدائم الذي ليس له ابتداء ولا انتهاء. وهو بهذا المعنى صفة من صفات الله، لأنه تعالى كان وسيكون دائمًا. أما العالَم الحادث الفاني فليس أبديًّا، لأنه لم يكن ولن يكون دائمًا. وفلاسفة القرون الوسطى يقسمون الأبد الزماني قسمين، فيسمون دوام الوجود في الماضي أزلًا (a parte ante)، ودوام الوجود في المستقبل أبدًا (a parte poste). ولا فرق بين الأزل والأبد بالنسبة إلى الله تعالى، لأن أبده عين أزله، وأزله عين أبده، بل الأزل والأبد بالنسبة إليه صفتان أظهرتهما الإضافة الزمانية لتعقل وجوب وجوده، وإلا فلا أزل، ولا أبد، كان الله ولم يكن شيء معه.

أما الأبد اللازماني فهو المطلق أو الشيء الذي لا نهاية له. وهو مقابل للزمان. فكل حادث وكل موجود متناهٍ هما في الزمان. أما الموجود الأبدي فليس حادثًا وليس له قبل ولا بعد، بل هو الحاضر الأبدي (Duratio tota simul)، وهو فوق الزمان. لقد كان الفلاسفة الإيليون مثلًا يفرقون بين الوجود والكون، فيقولون إن المطلق لا يوصف إلا بالوجود، وإن الأشياء المتناهية لا توصف إلا بالكون، وإنه ليس للوجود ماضٍ ولا مستقبل، ولكنه في حاضر لا يزول. فأخذ أفلاطون وأرسطو عنهم هذا الأصل وقالا إن الموجود الكامل لا يتكون ولا يتغير، وهو واحد أبدي لا حركة ولا تعاقب في وجوده التام غير المنقسم، ولا صلة له بالزمان. أما الموجودات غير الكاملة فتولد وتتغير وتتكون بدون انقطاع، وهي في الزمان. وعلى ذلك فالفرق بين الأبد والزمان ليس بالرتبة والمقدار، كالفرق الذي بين العدد

الغير المتناهي والعدد المتناهي، وإنما هو بالطبيعة، لأن أحدهما غير منقسم والآخر منقسم إلى غير نهاية. وليس بينهما مقياس مشترك. وعلى ذلك أيضًا يمكن أن يوصف العالَم والزمان بأنهما لا ابتداء لهما ولا انتهاء ولا يكونان مع ذلك أبديين؛ لأنه يكفي أن يكون وجودهما مشتملًا على التبدل والتغير حتى يكون غير أبدي. هذا الذي أشار إليه أفلاطون بقوله إن الزمان صورة متحركة للأبدية غير المتحركة، وهذا أيضًا ما ذهب إليه أرسطو عند استدلاله على وجود الله بوجود الحركة والتغير، فخلص من ذلك إلى القول بوجود محرك لا يتحرك. إن هذا الأبد اللازماني هو المعنى الذي أخذ به أيضًا القديس توما الأكويني وديكارت ومالبرانش وبوسويه وفنلون وليبنيز وكانْت.

والأبد والأمد متقاربان. لكن الأبد لا يتقيد، فلا يقال أبد كذا، والأمد ينحصر فيقال أمد كذا، كما يقال زمان كذا.

وأبدًا ظرف زمان للتأكيد في المستقبل نفيًا وإثباتًا، فصار كقط والبتة في تأكيد الزمان الماضي. يقال: ما فعلت كذا قط والبتة، ولا أفعله أبدًا، أو أفعله أبدًا. ويقال أيضًا: لا آتيه أبد الآبدين ودهر الداهرين. وآخر الأبد كناية عن المبالغة في التأييد.

* * *

وفيما يلي المصطلح الأخير الذي ورد في المقال السادس والثلاثين:

الفيلسوف

في الفرنسية	Philosophe
في الإنكليزية	Philosopher
في اللاتينية	Philosophus

الفيلسوف هو الذي يتعاطى الفلسفة، ويقال إن القدماء كانوا يسمونه حكيمًا (Sophos)، فلما جاء فيثاغوروس سمَّى نفسه فيلسوفًا؛ أي محبًّا للحكمة، لأن صفة الحكيم في نظره لا تطلق إلا على الله وحده. ويُحكى أنه كان يشبِّه الحياة بالمعارض التي يقيمها اليونانيون، ويقول: إن الذين يحضرون هذه المعارض ثلاثة رجال، رجل يحضرها للاشتراك في ألعابها، ورجل يحضرها للبيع والشراء، ورجل يحضرها للاستمتاع برؤية مشاهدها، وهذا الرجل الأخير هو الفيلسوف.

وقد يطلق اسم الفيلسوف على الرجل الذي يؤمن بقيمة العقل، ويحاول التقيد به في علمه وعمله، بخلاف الرجل الذي يبني علمه وعمله على معطيات الوحي والإلهام.

وقد يطلق اسم الفيلسوف أيضًا على العالم الذي يبحث عن الأسباب القصوى للأشياء أو على كل مفكِّر يفسر الحوادث تفسيرًا عقليًّا، فيكون لفظ الفيلسوف بهذا المعنى صفة تطلق على صاحب الرأي، تقول: العالم الفيلسوف، والشاعر الفيلسوف.

وقد يطلق اسم الفيلسوف أخيرًا على من يمارس الفلسفة علمًا وتعليمًا، أو يطلق تهكُّمًا على من كان شاذّ الرأي.

لقد كان رجال القرون الوسطى يطلقون لفظ الفلاسفة على علماء الكيمياء الذين يحاولون استخراج الذهب من النحاس، ومنه قولهم حجر الفلاسفة، ومصباح الفلاسفة. وكان رجال القرن الثامن عشر يطلقون لفظ الفلاسفة على الكتاب الطبيعيين الذين وقفوا إزاء الدين موقفًا سلبيًّا ودعوا إلى الحكم على الأشياء بأحكام العقل كفولتير وروسو وديدرو ودالامبير ولا يزال بعض أهل زماننا يطلقون اسم الفيلسوف على من يتنكَّر للدين ويحرِّر نفسه من أوامره ونواهيه. وهذا خطأ لأن الفلسفة لا يشترط فيها أن تكون مخالفة للدين وجوبًا.

جميل صليبا

* * *

سِتَادِسِتًا:

في فصل «الإبداع والاتباع» من كتاب «من الخيال إلى الحقيقة» يقول صليبا:

«إن أسباب قلق الشبان كثيرة، وأهمها في نظرنا خلو أذهانهم من تصور المثل العليا وعدم اتصافهم بتفكير شخصٍ حرٍّ يتجرّدون به من اتباع الآثار القديمة من جهة، ومن تقليد الحضارة الغربية تقليدًا أعمى من جهة أخرى. ولو أبدعوا لأنفسهم صورة جديدة تعبّر عن أصالتهم الذاتية، لكانت هذه الصورة خير كاشف عمّا يرغبون به من قديمهم أو يحتاجون إليه من جديد غيرهم. الأهم في ذلك كله تحقيق التوازن بين القديم والحديث لا للخروج من الركود المزمن فحسب، بل لدفع عجلة التقدم إلى الأمام في نظام وثقة واطمئنان».

وفي فصل «مصير الحضارة» من الكتاب نفسه، يروي الدكتور صليبا ويبوح بما يلي:

«تلوثت الحضارة بأوراق المادة حتى أصبح كل شيء فيها آليًّا، وطغت هذه الآلية على العلم والفن والأخلاق حتى جاء هنري برغسون فثار على الآلية المادية ودعا إلى ما في الكون من حياة فياضة مبدعة، إلى ما في النفس من تغيّر فعال خالق، فقلب التطور الآلي إلى تطور مبدع، وجرَّد الحياة من حجاب المادة والنفس، ومن قيود الجسد».

* * *

سِتَّابِعًا:

وفي مقال بعنوان «التربية العربية بين الأصالة والاقتباس»، نُشر في مجلة النعمة (العدد ١٥، كانون الثاني ١٩٦٢)، يقول د. صليبا:

«لسنا نريد أن نتكلم الآن على الجهود التي تبذلها الدول العربية لنشر العلم في جميع طبقات الشعب، فإن زيادة عدد المدارس وزيادة عدد معلميها وتلاميذها، ونسبة هذه الأعداد إلى مجموع السكان، لأصدق شاهد على أن مسألة التعليم تحتل المقام الأول في سياسة الدول العربية الحديثة. ولكننا نريد أن نلقي الآن على أنفسنا بعض الأسئلة وهي: ما قيمة هذه التربية؟ ما مبلغها من الأصالة؟ وما حدها من الاقتباس؟ ثم ما هو أثرها في تنمية الشخصية العربية، وتحررها وتكاملها، وما هي درجة مشاكلتها لحاجاتنا ومنازعنا؟ وملاءمتها لبنية المجتمع الذي نعيش فيه؟»

ويتابع صليبا قائلًا:

«لا بدّ عند الإجابة عن هذه الأسئلة من أن نذكر فيها أولًا ما نعنيه بـ «الأصالة والاقتباس». فالأصالة في التربية جودتها وابتكارها وعراقتها كالأصالة في الرأي، وفي الأسلوب وفي النسب. أما الاقتباس فيها فهو أخذها عن الآخرين وتعلمها والاستفادة منها. ولا يشترط في أصالة التربية أن تكون عناصرها مخلوقة من العدم كخلق شيء من لا شيء، وإنما يشترط فيها أن تكون مطبوعة بطابع خاص لا يشاركها في غيرها.»

وينهي صليبا مقاله الصالح ليومنا هذا وربما لكل الأزمان قائلًا:

«فبعد تحديده للشروط التي تتناول التربية العربية بين الأصالة وبين الاقتباس، يعطي للدعوة إلى إحلال القضايا التربوية المقام الأول، وإشراك السلطات المحلية في شؤون التعليم وصيانة حرية الفكر وإثارة روح المبادرة والإنتاج الشخصي- والابتكار والإبداع عند جميع القائمين على شؤون التربية. وسبيل ذلك تقديم مفهوم التربية على مفهوم التعليم في جميع المعاهد واعتبار المدرسة مصنعًا للرجال أو معملًا لقادة المجتمع.

وأعظم المعاهد العلمية أثرًا في إعداد القادة هي الجامعة، لأنها لا تقتصر على التدريب المهني في إعداد الاطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين والمدرسين، بل تهيئ لهم في الدراسات الإنسانية زادًا يوسّع مداركهم وأفقهم الفكري، ويحرر أنفسهم، ويفتح قلوبهم ويعين على تفتح المجتمع كلّه.»

* * *

ثَامِنًا:

وتحت عنوان: «النضال في سبيل الحضارة» كتب الدكتور صليبا يقول:

«"الحضارة في خطر" قول يردِّده أصحاب الفلسفة الجماعية كما يردده أصحاب الفلسفة الفردية.

أما الشرط الأساسي لبقاء الحضارة وتقدمها، فيُجمِع الفريقان على وجوب تنظيم جهود الأفراد وتوجيهها إلى غاية واحدة. وأما الشرط الأساسي لنمو الحضارة وازدهارها في نظر الفرديين، فهو منح الإنسان في المجتمع حق العمل الفردي وحق الاختيار الفردي...»

ويتكلّم صليبا في بحثه هذا عن السلام، ويقول:

«إن أول وسيلة لتحقيقه على وجه الأرض، هي الاطلاع على جميع الأسباب التي تزيد من توتر العلاقات الدولية. وإن الإنسان - كما يقول بيكون - لا يستطيع السيطرة على الطبيعة إلا بالخضوع لقوانينها، وكذلك المصلح الاجتماعي لا يستطيع أن يحسن العلاقات الدولية إلا إذا عرف الأسباب الباعثة على توترها».

ويقول أيضًا:

«إن مسألة السلم في عصرنا الحديث رهينة بإقامة نظام كلي يستعلي على الدول القوية ويستمد مبادئه من المثل الروحية التي يتطلع إليها الإنسان.

ولولا تشويه هذه المثل وتسخيرها للغايات القومية لما شاهدنا في الماضي حروبًا أشعلها قادة الشعوب باسم الدين. إن مبدأ الأخلاق الكونية لا يكون كونيًّا ولا خلقيًّا إلا إذا كان عقليًّا. وما استطاعت سوى وسيلة واحدة في تاريخ الإنسان أن تنجح في إيجاد نظام اجتماعي يكفل للإنسان سعادته ويضمن له حرية الفكر والقول والعمل، وهذه الوسيلة هي إقامة قانون عادل يستمد مقوماته من طبيعة الإنسان الروحية.

إن الذين أسسوا عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى، ومنظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية لم يخفقوا في عملهم إلا لإهمالهم هذه الحقيقة الأساسية. وإذا كانت الحروب قد أصبحت اليوم عالمية، فإن صفتها هذه تدل على قرب زوالها، لأنه ليس من مصلحة أمة مهما تكن قوية أن تشعل نار الحرب ولا أن تبدِّد قوى الإنسان. وليس على قادة الشعوب أن يقتصروا في سياستهم على دراسة عقلية الشعب الذي يحكمونه أو على دراسة الميول التي تنميها فيه التربية، وإنما ينبغي لهم أن يدركوا أيضًا جميع الشروط اللازمة لتقدم الإنسان ونمو حياته، فلا يكفي إذن لحفظ السلام أن تعقد الاتفاقات والمعاهدات ولا أن يكون الموقعون عليها حسني النية، وإنما ينبغي أن يؤمنوا بالسلام الحقيقي، وهو سلام عقلي لا بل سلام كلي لا يجد الإنسان مثاله في الكون والطبيعة بل يجده في طبيعة الإنسان الروحية...»

* * *

تَاسِعًا:

وفي مقال «معنى الديمقراطية» يقول صليبا:

«معنى الديمقراطية: سيادة الشعب أي أن يتولى الشعب حكم نفسه، وهي المساواة أمام القانون في الواجبات والحقوق، وفي الكرامة والمنزلة الاجتماعية وتحقيق العدل الاجتماعي والاقتصادي في مختلف الميادين... وهي مبدأ الحرية الفردية. ومعنى ذلك أن النظام الديمقراطي يكفل حرية الرأي ويعترف لكل فرد بحقه في الإعراب عن أفكاره بالقول والكتابة والتصوير وسائر الوسائل الأخرى. وكما تكفل الديمقراطية حرية الرأي، فكذلك تكفل حرية الصحافة والطباعة وحرية الاجتماع والتظاهر، وسرية المراسلات البريدية والبرقية والهاتفية، وصيانة المساكن...»

وينهي صليبا بحثه الفياض عن الديمقراطية بقوله:

«الديمقراطية قوة موجهة، وحياة نامية، وتطور دائم، وتطلع إلى الكمال، وإيمان بالمثل العليا، فإذا لم تطبق في الأرض حتى الآن على الوجه الأكمل، فمردّ ذلك إلى طبيعة الأمور الإنسانية... وباعتقادي أن الإنسانية قادرة على مجاوزة ذاتها والتغلب على مشكلاتها في صبر وفرح ورجاء، وأن التطور العالمي سيؤدي شيئًا فشيئًا إلى تحقيق كرامة الإنسان وحريته وسيطرته على نفسه، فتسود الديمقراطية جميع الأمم ويعم العدل جميع الناس، ويزول الفقر والمرض والجهل، وتهب على العالم نفحة من الخير تحقق له السلام والحرية والكمال والسعادة.»

* * *

الفصل الرابع

جميل صليبا بأقلام أصدقائه ومحبّيه

أنتهز مناسبة تأدية هذه الدراسة التي أُوكلت إليّ من مجمع اللغة العربية - أرفع سلطةٍ لغوية علمية في سورية - لأنقل أقوالًا وشهادات من علماء وأدباء ومفكّرين، بالدكتور صليبا وإنتاجه، وبقيمته الثقافية العلمية والأخلاقية.

* * *

أوّلاً:

في حفل استقبال الأستاذ الدكتور عبد الكريم زهور عدي عضوًا في مجمع اللغة العربية خلفًا للأستاذ الدكتور جميل صليبا، تحدَّث الأستاذ الدكتور شاكر الفحام عن هذين العضوين، وكان مما قاله:

«أيها السادة

إننا، ونحن نحتفي باستقبال الزميل الأستاذ عبد الكريم، لا نملك إلا أن نذكر سلفه الراحل أستاذنا الدكتور جميل صليبا بأحسن ما يُذكر به فقيد عزيز، ونشيد بأياديه البيض على العربية وعلى الناشئة. لقد أسعدني الحظُّ فكنتُ بين تلاميذه عام (١٩٤٠-١٩٤١م) في تجهيز دمشق الأولى، حين آثر، وهو المثقل بالأعباء في رئاسة التعليم الثانوي، أن يقوم بتدريس المنطق في صف الرياضيات (البكالوريا الثانية).

كنا ننتظر بشوق وبهجة ساعتَي المنطق، وقد اختار وقت تدريسهما صباح السبت من كل أسبوع. وكنا نعجب لدقته البالغة، يبدأ درسه في الثامنة صباحًا لا

يتأخر دقيقةً واحدة، وكان درسه شائقًا، جمَّ الفوائد، ولا أنسى صوته المحبَّب يتسلسل بكلماته الفصيحة المبينة في رفق وتؤدة تسلسل الماء العذب، وتُسْلمه الفكرة إلى الفكرة في ربطٍ محكم، حتى ما تكاد تندُّ عنه واحدة تتصل بموضوعه. كان يمضي في حديثه ونفوسنا متعلقة به تتابعه حتى ينهي درسه، وقد استوفى كل عناصر بحثه، وكأنه يقرأ خواطرنا وما يعنُّ لنا من فِكَر، فما تكاد تخطر لنا فكرة نسأل عنها بعد عرضه الممتع الواضح المحيط. لقد كان معلمًا مربيًا حقًّا، وكان له قدرةٌ لا تحدُّ في جذب طلابه وسامعيه والاستئثار بكل انتباههم. واستطاع في كل الميادين التي عمل فيها أن يكون المجلي المبرز السبَّاق. انضم إلى حلبة الخالدين، وآثر المجمع بحبه، وكان له في خدمة العربية، والإبانة عن أسرارها ودقائقها والمنافحة عنها القِدْحُ المعلَّى. لقد وقف في الساحة مع زملائه ورفاقه المجمعيين، يحمل الراية، يتقدم بها مظفرًا موفقًا أربعًا وثلاثين سنة ونيفًا (آذار ١٩٤٢ – تشرين الأول ١٩٧٦ م) حتى وافاه الأجل المحتوم، فتلقَّى منه الراية الأستاذ عبد الكريم باليمين ليمضي على السنن القاصد، يكمل البناء الذي أرسى السابقون دعائمه، يشارك في حمل الرسالة التي تسلمناها وائتمنا عليها. فلئن عظُم رُزْؤُنا بفقيدنا الغالي، إنَّ لنا في خلفه الأستاذ عبد الكريم الأمل الأخضر والرجاء الخصيب:

إذا مات منا سيِّدٌ قام بعده نظيرٌ له يُغْنِي غَناه ويَخْلُفُ»

* * *

ثَانِيًا:

ألقى الدكتور عبد الكريم زهور عدي في حفل استقباله عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق خطابًا تحدث فيه عن سلفه الدكتور جميل صليبا؛ وكان مما قال فيه:

«كان أول معرفتي بالدكتور صليبا سنة ١٩٣٦. في تلك السنة التي أُقيم مهرجان للمتنبي في دمشق. وأصدرت جريدة الأيام الدمشقية عددًا خاصًّا جمعت فيه ما قيل في المهرجان ... وأذكر أنني أُعجبت بالدراسة التي قدَّمها الدكتور صليبا... كلُّ ما أذكره أنني فضَّلتها في حينها على كل ما كُتب وقيل في ذاك المهرجان، وأنني راقني منها خاصة الروحُ القومية المنبثة فيها.

لم أكن، لسوء حظي، تلميذًا له. وكانت لقاءاتي له محدودة... لقيتُه بصفته رئيسًا للتعليم الثانوي وعميدًا لكلية التربية وفي لجنة الفلسفة وعلم الاجتماع في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. ولكنني قرأت في مطلع شبابي قراءةَ دراسةٍ كتاباته من علم النفس إلى دراساته التي قدَّم بها للمنتخبات من فلاسفة العرب أو جمعها في كتابه (من أفلاطون إلى ابن سينا). وربما كانت سببًا من أسبابٍ دعتني إلى تغيير اتجاهي من الرياضة والعلوم الفيزيائية إلى الفلسفة...

الدكتور صليبا كان معتدل المزاج ضابطًا لأعصابه وتصرفاته وعواطفه، عقلانيًّا واقعيًّا مجدًّا دؤوبًا قادرًا على التنظيم وصادقًا في أعماله. ومثل هذا الطبع لا تتحكم

بمسيرة حياته النزوات والأهواء والانقلابات المفاجئة، وإنما هو التطور الهادئ تتولد المراحل فيه بعضها من بعض تولدًا طبيعيًّا دون خلل أو انحراف أو عنف...».

ثم وصف حياة صليبا وأعماله فقال:

«حياةٌ حافلة بالعمل غنية بالثمار الطيبة. فلو شئتُ أن أدرسها دراسة تحليلية نقدية محيطة لاقتضاني هذا العمل كتابًا برأسه. فاعذروني، أيها السادة، إذا أنا اكتفيت، في هذا المقام، بوقفة سريعة عند جميل صليبا العضو العامل في مجمع اللغة العربية بدمشق...

كان، كدأبه في كلِّ عملٍ يوكل إليه، يعمل بجد وانتظام وإنتاج في جلسات الهيئة العامة واجتماعات اللجنة الإدارية. وقد مثَّل المجمع بكفاية ولياقة في كثير من المؤتمرات...

وأعمال جميل صليبا المجمعية المكتوبة تتوزع على ثلاثة مجالات: الدراسات والتعليقات التي زوَّد بها مجلة المجمع، والمخطوطات التي حقَّقها له، والمصطلحات الفلسفية التي وضعها أو ثبتها وحدد معانيها:

الدراسات الفلسفية:

إن مجلة المجمع هي وجهه المجلو على الناس أو على خاصةٍ منهم في مواعيد محددة، ونبضُهُ الذي ينبئ عن قوة الحياة فيه. ولقد ظلَّ الدكتور صليبا يمدُّ هذه المجلة باستمرار وشبه انتظام من سنة ١٩٤٤ إلى وفاته، بل إلى ما بعد وفاته: فقد نشرت له المجلة في الجزء الثاني من المجلد الثاني والخمسين سنة ١٩٧٧ دراسة بست وثلاثين صفحة عن (فكرة الخير عند الفارابي). وقد أحصيت له في السنين الثلاث

والثلاثين ستة وخمسين عنوانًا، ما بين دراسة مطولة قد تمتد على جزأين وتتجاوز العشرين أو الثلاثين صفحة وقد تجاوزت إحداها الستين، وتعليق أو نقد قد لا يتجاوز الصفحة الواحدة؛ ذلك إلى ما نشره من مصطلحات فلسفية. وقد انصبت معظم الدراسات الجادة على الفلسفة العربية، وجمع أكثرها في الجزء الأول من كتاب (الدراسات الفلسفية-١٩٤٦).

إن الميادين التي جرى فيها الدكتور صليبا كثيرة، ولكن الميدان المفضل لديه كان الفلسفة العربية... استخلص خصائصها العامة التي جعلها أربعًا:

الأولى الصفة العقلية، وهي أن النفس الإنسانية لا تستطيع أن تقلب الصور الحسية إلى معقولات كلية إلا بتأثير العقل الفعال المفارق للعقل الإنساني. والثانية الصفة الروحية وهي الاعتقاد بأن النفس الإنسانية جوهر روحي وأنها باقية بعد الموت بقاءً كليًّا أو فرديًّا. والثالثة هي الإيمان بوحدة المعرفة والحقيقة. والرابعة هي الميل إلى التوفيق بين الآراء المتعارضة، وبخاصة بين الحكمة والشريعة... ولهذه الصفات المختلفة أقسام وفروع ليس من السهل استقصاؤها هنا، هذا عدا صفات أخرى... كطبيعة الرازي وإشراقية السهروردي وصوفية الغزالي ووضعية ابن خلدون وغيرها، وهي كلها تدل على أن الفلسفة العربية معقدة العناصر، مشتبكة الأصول والفروع، كثيرة الغايات والمقاصد...

يبدو لي أن جميل صليبا بدأ درس الفلسفة العربية بابن سينا، في أواسط العقد الثاني، ثم رجع إلى أسلافه: الفارابي خاصة والكندي... ولبث طويلًا في هذه الدائرة: يتعمق بالدراسة ويتوسع حتى كاد يحيط بفلسفتي الفارابي وابن سينا، ولم

يبرحهما إلا لمامًا: مرة مثلًا إلى ابن خلدون وأخرى إلى أبي الهذيل... حتى العقد السابع حين بدأ يوسع دائرة اهتمامه، فشملت ابن رشد... ومدَّ دراسته للغزالي...

ولم يخالف الدكتور صليبا عن سنة الأولين (الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة العرب والفلاسفة الأوربيين في العصر الوسيط) والآخرين (المستشرقين ومن نهج نهجهم من الباحثين العرب والمسلمين) في فهمهم للفلسفة العربية وتخطيطهم لحدودها: وهي أنها الفلسفة الموروثة عن يونان، وبخاصة عن أفلاطون وأرسطو، وقد امتزجت بها أفكار من العقائد الشرقية وأفكار من الدين الإسلامي...

الرسالة الجامعة:

قلت سابقًا إن أحد مجالات نشاط الدكتور صليبا المجمعي كان تحقيق مخطوطات من التراث. فقد حقق الرسالة الجامعة، ونشرها المجمع: الجزء الأول سنة ١٩٤٨ والجزء الثاني سنة ١٩٥١. واعتمد في التحقيق على أربع مخطوطات... واستأنس بمخطوطة محفوظة في دار الكتب المصرية، واطلع على مخطوطة في مكتبة أحد الأمراء في سلمية...

وكانت طريقته في التحقيق أن يقرأ النصَّ في مخطوطة ويقابله بما في المخطوطات الأخرى ثم يختار الأصح والأصدق، ويشير إلى الروايات المختلفة، حين توجد، في ذيل الصفحات...

كتاب الحيدة:

وحقق الدكتور صليبا (كتاب الحيدة) لعبد العزيز الكناني ونشره المجمع سنة ١٩٦٤. وهذا الكتاب محضر لمناظرة جرت بحضرة الخليفة المأمون بين مؤلفه وبين

بشر المريسي حول مسألة خلق القرآن. وعنوان الكتاب (الحيدة) مصدر لفعل حاد بمعنى مال وزاغ، ويطلق في أصول المناظرة على فعل المسؤول إذا هو حاد وزاغ في جوابه عن موضوع سؤال السائل إلى موضوع آخر تفاديًا للإحراج والتورط. وكتاب الحيدة هذا مكون من قسمين: الأول يتصل بالمناظرة وما سبقها ورافقها من ملابسات، والثاني اعتذار للمأمون عما فرط من المؤلف إذ أملى وريقات عما جرى في المناظرة على بعض حملة المحابر فاستثار غضب المأمون...

واتبع الدكتور صليبا في التحقيق الطريقة نفسها التي اتبعها في تحقيق الرسالة الجامعة. واعتمد على أربع مخطوطات وعلى طبعة مصرية قديمة سقيمة... وقدم للكتاب بمقدمة ضافية بدأها بالتعريف بالمؤلف، بعد أن رجع إلى مصادر كثيرة تزيد على العشرة ابتداء من فهرست ابن النديم وانتهاء بأعلام الزركلي...

ثم مضى الدكتور صليبا إلى مسألة خلق القرآن فقال: لقد سبق بشرًا إلى هذه المقالة جهم بن صفوان ومعظم المعتزلة، وترجع عند هؤلاء إلى مسألة نفي الصفات عن الله، التي ترجع بدورها إلى التوحيد الأصل الأول من أصولهم الخمسة. ثم يعرض باختصار لبعض حجج المعتزلة ولموقف أحمد بن حنبل وعبد الله المأمون.

وخطورة هذه المسألة لم تأت من مقام القرآن في عقيدة المسلمين وحياتهم فقط، ولكن من أنها أصبحت عنوانًا لعقيدةٍ جعلها المأمون عقيدة للدولة وأراد أن يفرضها على الرعية مبتدئًا بالقضاة والمحدثين والشهود...

وانتهى الدكتور صليبا إلى تلخيص كتاب الحيدة... وكتاب الحيدة إذا اطرحت منه المقدمات والتعليقات والمشاغبات والتكرار والشواهد الكثيرة بدون ضرورة

والإسراف في مدح الخليفة وما يظن أنه أقحم عليه، قد تزيد عليه ورقات عبد العزيز العشر الأولى. فالمناظرة تنقسم إلى قسمين: الأول حين اتفق على أن يكون القرآن والسنة الأصل الذي يرجع إليه في حال الاختلاف في الفروع، وهو أكثر من تسعة أعشار المناظرة، والثاني حين أصبح هذا الأصل النظر والقياس...

المعجم الفلسفي:

وأخيرًا نصل إلى المجال الثالث من مجالات نشاط الدكتور جميل صليبا المجمعي، وإلى قمة عمله، وقد توج به حياته الفكرية، وهو المعجم الفلسفي، الذي أصدر مجلده الأول سنة ١٩٧١ والثاني سنة ١٩٧٢. ويقع فيما يقرب من ١٥٠٠ صفحة، ويحتوي على ١١٦٠ مصطلحًا فلسفيًّا عربيًّا، بحذاء كل مصطلح منها مقابله باللغات الفرنسية والإنجليزية واللاتينية. وقد شرح كلَّ مصطلح مبيِّنًا أصله اللغوي ومعانيه في المنطق والأخلاق وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال وما وراء الطبيعة والدين وعلم الكلام واللاهوت... حين توجد مثل هذه المعاني. وكان حريصًا على إيراد النصوص الفلسفية التي تبين وجوه استعمال المصطلح. كل ذلك بأوجز الكلام وأوضحه.

وهذا المعجم هو محصول حياة جادة في دراسة الفلسفة وتدريسها وتحقيق نصوصها وترجمتها والتأليف فيها مع عناية خاصة بالمصطلح. وقد بدأ بمعاناة الفلسفة العربية والتعبير عنها باللغة الفرنسية وترجمة نصوص منها وإليها منذ كان يحضر رسالة الدكتوراه. ويبقى العثور على المصطلح الفرنسي المقابل للمصطلح العربي في فلسفة ابن سينا على مشقته سهلًا، لأن فلسفة الشيخ الرئيس ترجع بصورة

عامة إلى الفلسفة اليونانية، وهذه قد أشبعت درسًا وثبت مصطلحها في اللغات الأوربية. ولم يكن تدريس العلوم الفلسفية الحديثة في الربع الثاني من هذا القرن، مع الحرص الشديد – المعروف عن الدكتور صليبا – على سلامة اللغة ووضوح التعبير والبعد جهد الإمكان عن تهجين الكلام، ومع افتقاد الأسلاف المحدثين الذين روَّضوا اللغة العربية وحضروها لتلقي مثل هذه العلوم...

وقد قدَّم لمعجمه بمقدمة بسط فيها رأيه في وضع المصطلح وتثبيته...

ولم يدخر الدكتور صليبا جهدًا في عمله؛ فقد رجع في اللغة العربية إلى معاجم اللغة وبخاصة قاموس الفيروزآبادي، وإلى معاجم الاصطلاح وبخاصة تعريفات الجرجاني وكليات أبي البقاء وكشاف التهانوي، وإلى كتب الفلسفة وبخاصة مؤلفات ابن سينا والنجاة والإشارات منها خاصة. ورجع إلى معاجم الاصطلاح في اللغتين الفرنسية والإنجليزية وبخاصة معجم لالاند الذي يقول إنه اقتبس منه معظم تعريفاته. فإذا كان أي عمل مهما يبلغ من الإتقان لا يمكن أن يكون نهاية المطاف، لكنه يمكن أن يكون محطة رئيسة في طريق التطور الذي لا ينتهي؛ فمعجم الدكتور صليبا بالتأكيد أول محطة كبرى في عصرنا على طريق تثبيت المصطلح الفلسفي...

وبعدُ، أيها السادة، لقد كنت دائمًا أقول لنفسي ولبعض أصدقائي، ومنهم من هو الآن في هذه القاعة: إن لحسن الإدارة شأنًا كبيرًا في الإنتاج حتى في ميدان الفكر. فمن الناس من هو جعبة علم، ولكنه أخرق لا يعرف كيف يتحرك بين متراكم معلوماته، فلا يعرف كيف يفيد من علمه، فيبقى علمه دفين صدره إلا على قليل ممن له اتصال به وعنده الصبر والخبرة في استخراج الكنوز؛ ثم يموت ويدفن علمه معه. ومن الناس

من لا يفرط بشيءٍ من علمه، يعرف كيف ينظم معلوماته ويصنفها ويدخرها ليفيد منها في الوقت المناسب في بحوثه ودراساته، لا يهدر شيئًا مما حصَّل بل يضعه في موضعه ويخرجه للناس؛ حتى إذا غادر هذه الحياة، كان لكل من يريد نصيب من ميراثه، يمد يده حين يشاء فيأخذ فيغتني، ويظلُّ التراث سليمًا لا ينضب ولا ينقص. وكنت أضرب الأمثال على هذين النوعين من الناس ممن أعرف من رجال البحث العلمي والفكر، وكان جميل صليبا واحدًا من الأمثال على النوع الثاني.»

* * *

ثَالِثًا:

مقال الأستاذ شحادة الخوري عضو مجمع اللغة العربية بدمشق بعنوان «**الدكتور جميل صليبا**»؛ يقول فيه:

«إن مَنْ شهد مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، تلك السنوات التي تلت نيل سورية استقلالها وانزياح الاستعمار الفرنسي عنها بعد ربع قرن من الكفاح المتصل، يذكر جيدًا تلك الآمال التي كانت تذخر بها القلوب، وذلك التشوق الحار إلى بناء دولةٍ حضاريةٍ تعيش العصر بعلومه وآدابه وفنونه وإبداعاته، ولاسيما أنها تستضيء بماضيها الزاهر حين كانت بلاد الشام موطن التقدم والمعرفة ومهدًا للمدنية والقيم الإنسانية والروحية.

في هذا الجو انطلقت طليعة من المثقفين الذين درسوا في مدارس الشام وأتقنوا

لغتها وتمثلوا ثقافتها – ولاسيما مَن أُتيح لهم أن يكتسبوا العلوم الحديثة في ديار الغرب – ووضعوا جميع قدراتهم الفكرية والعملية لتحقيق النهضة المنشودة.

ومَن مِنَّا لا يذكر الدكتور كامل عياد والدكتور أحمد السمان والدكتور إبراهيم كيلاني والأستاذ أنطوان مقدسي والدكتور جميل صليبا وحكمت هاشم ونظيم الموصلي وأمجد الطرابلسي، ممن كانوا عمدةً في شخصياتهم الناضجة، ومراجعَ في اختصاصاتهم العلمية المتنوعة. ونود هنا أن نلقي الضوء على واحد من هؤلاء هو: الدكتور جميل صليبا.

لقد ولد هذا المفكر النابه في بلدة القرعون الواقعة في البقاع الغربي في لبنان عام ١٩٠٢م. وكانت منطقة البقاع ولبنان وغيرها من المناطق السورية خاضعة للاحتلال العثماني الذي قسّمها إلى ولايات ومتصرفيات. وقد انتقل مع أسرته إلى دمشق عام ١٩٠٨، ودخل مدارس الآسية عام ١٩١٢. وهذه المدارس كانت ومازالت حتى اليوم تعمل برعاية البطريركية الأنطاكية للروم الأرثوذكس، وهي تنهج منذ تأسيسها نهجًا وطنيًّا عربيًّا تحرريًّا، وتصوغ طلابها الذين ينتمون إلى دمشق ومحافظتها على اختلاف أديانهم وطوائفهم صياغةً وطنية عربيةً واحدة. ثم انتقل جميل صليبا إلى المكتب السلطاني العثماني المجاني، فدرس العلوم باللغة التركية حتى عام ١٩١٨م. ثم انتقل إلى (مكتب عنبر) الذي كان مدرسة تجهيز دمشق الرسمية الوحيدة فحصل على الشهادة التي يمنحها هذا المكتب عام ١٩٢١. ونظرًا لتفوقه في الدراسة أوفده وزير المعارف آنذاك محمد كرد علي إلى فرنسا لدراسة العلوم والفنون والآداب. يقول السيد إلياس نصر الله في مقال نشره في مجلة (المعلم العربي) العدد

الثاني ١٩٩١م ما يلي: «دخل جميل صليبا كلية الآداب بجامعة باريس (السوربون) فدرس فيها حتى حصل على دبلوم التربية من معهد علم النفس عام ١٩٢٣م، وشهادة الإجازة في الآداب (فرع الفلسفة) عام ١٩٢٤، والإجازة في الحقوق ١٩٢٦م، وعلى الدكتوراه في الآداب (فرع الفلسفة) عام ١٩٢٧م، وكان موضوع أطروحته الرئيسية: دراسة في ميتافيزيقية ابن سينا، وموضوع الأطروحة المكملة: نظرية المعرفة في المذهب الاجتماعي الفرنسي.

عَمِلَ جميل صليبا فور عودته من فرنسا، مدرسًا للفلسفة، ثم رئيسًا للتعليم الثانوي والفني والإكمالي في وزارة المعارف عام ١٩٣٥م، ثم رئيسًا للجنة التربية والتعليم عام ١٩٤٥م، فأمينًا عامًّا لهذه الوزارة عام ١٩٤٩م.

في الشهر التاسع من العام نفسه ١٩٤٩م، نُقل جميل صليبا إلى الجامعة السورية «جامعة دمشق اليوم» أستاذًا في المعهد العالي للمعلمين «كلية التربية» اليوم، ثم عميدًا لهذه الكلية في عام ١٩٥٠م وحتى إحالته على المعاش عام ١٩٦٤م، كما شغل منصب رئيس جامعة دمشق بالوكالة عام ١٩٥٨م. وبعد أن أحيل الدكتور صليبا على المعاش عام ١٩٦٤م، نُدِبَ محاضرًا في المركز الإقليمي وعضوًا في اللجنة الدولية لترجمة الروائع.

وقد اشترك في معظم المؤتمرات الثقافية المحلية منها والقومية والعالمية، في دمشق وبيروت، والكويت، وبغداد، والقاهرة، والإسكندرية، وطهران، وهمدان، وباريس، وموسكو.

بيد أنه لم يهمل لحظة في حياته إلا أفاد منها لدراسة التراث الفكري والعربي،

والثقافة الغربية والعالمية المعاصرة، فدرس الفلسفة العربية الإسلامية، وتعمق في دراستها، وكتب فيها وحقق بعض كتبها، وعمل على إدخال تدريسها في برامج التعليم الثانوي في سورية منذ بداية الثلاثينيات من هذا القرن.

تَرجم صليبا بعضَ أهم آثار الفلسفة الغربية المعاصرة، وأعني بها: «مقالة الطريقة» لديكارت، و«التطوير المبدع» لبرغسون. وإضافة إلى «مكتب النشر العربي» الذي أسسه جميل صليبا – منذ بداية الثلاثينيات من – مع مجموعة من زملائه، فقد شارك أيضًا في تأسيس الكثير من المجلات الثقافية التي صدرت في سورية منذ العقد الثالث من القرن الماضي، كان منها: مجلة «المعلمين والمعلمات»، ومجلة «التربية والتعليم»، ومجلة «الثقافة»، ومجلة «كلية التربية»، ومجلة «المعلم العربي». وكذلك أَلَّف صليبا الكثير من الكتب في الفلسفة وعلم النفس والمنطق والتربية والآداب، وحقق الكثير من كتب التراث العربي.

وهكذا لم يكن صليبا أولَ من أدخل الفلسفة العربية الإسلامية في التعليم الثانوي في سورية فحسب، بل كان كذلك أولَ من كتب في علم النفس المعاصر في سورية، وعمل على تثبيت مصطلحاته، وأولَ من أحدث مادة «التربية في العالم العربي» في كلية التربية بجامعة دمشق وحاضر فيها وكتب.

قال فيه الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق: انضم الدكتور جميل صليبا إلى حلبة الخالدين، وآثر المجمع بحبه، وكان له في خدمة العربية والإبانة عن أسرارها ووقائعها والمنافحة عنها القدح المعلى.

وقال عنه المفكر الأديب حافظ الجمالي وزير التربية السابق: إن قفزة عقلية من عدة قرون حضارية هي التي تحققت على يد هذا المعلم الكبير.

لقد اهتم الدكتور جميل صليبا بعلم النفس وعلم التربية متسلحًا بعلم غزيرٍ وكفاءةٍ عالية ومعرفةٍ واسعة، فكان من حصاد ذلك كتاب – علم النفس – الذي يُعدّ في طليعة أعماله العلمية، ثم ضمن أفكاره في علمي الاجتماع والنفس في المحاضرات التي ألقاها والبحوث التي نشرها في المجلات التي كان له اليد الطولى في إنشائها، وكذلك في المؤتمرات التربوية والفكرية التي حضرها، والدروس التي ألقاها في المعهد العالي للمعلمين وغيره من منابر التدريس. والحق أن كتابه – علم النفس – كان بسعته ودقته وإحكام عرضه للمشكلات واللغة العربية السليمة الواضحة التي كتبت بها حديث المثقفين والأدباء والمدرسين والدارسين في مطلع الأربعينيات.

وأذكر أنني عكفت على هذا الكتاب فقرأته في صفِّ الفلسفة بالتجهيز الأولى بدمشق لتقديم الامتحان، ولكنني خشيتُ أن يفقدني الوقت ما قرأته فعمدت إلى تلخيص الكتاب على ضخامته ومازال هذا التلخيص محفوظًا لدي. وأذكر بهذه المناسبة أنني زرت الدكتور جميل صليبا بمنزله بشارع بغداد بدمشق مرتين:

المرة الأولى: عام ١٩٤٧ لإهدائه نسخة من الكتاب الذي أصدرتُه آنذاك وهو كتاب (حول المرأة) الذي يعرض المرأة قديمًا وحديثًا ويبين ما لاقت من ظلمٍ، ثم يدعو إلى مشاركة المرأة الرجل التعلم والعمل على قدم المساواة حرصًا على تنمية المجتمع وإنصاف المرأة.

المرة الثانية: زرته عام ١٩٥٠م أي بعد سنوات ثلاث لأهديه نسخة من كتابي (الأدب في الميدان) الذي يتضمن رأيًا صريحًا في أن يكون الأدب هادفًا عاملًا على النهوض الاجتماعي والفكري، لا أن يكون أدبًا حزينًا مأساويًا أو أدب تسلية ولهو.

وقد سُرَّ الدكتور صليبا عندما أعلمته بمضمون هذين الكتابين وأبدى تشجيعه لي، وقال: هذا هو فكر الحداثة الذي يبني مستقبل بلادنا.

ولم يترك الدكتور جميل صليبا طريقة من طرق إيصال معلوماته إلى الطلاب والدارسين إلا سلكها سواءً أكانت كُتبًا أو بحوثًا أو رسائل جامعية أشرف عليها. وبذلك نستطيع أن نقول إنه من أقدم علماء التربية في بلدنا سورية، وهذه عناوين لبعض مؤلفاته:

١- مستقبل التربية في العالم العربي.

٢- علم النفس.

٣- دروس الفلسفة (المنطق).

٤- من أفلاطون إلى ابن سينا، محاضرات في الفلسفة العربية.

٥- الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام، وأثرها في الأدب الحديث.

٦- تاريخ الفلسفة العربية.

٧- حي بن يقظان.

٨- الإنتاج الفلسفي خلال المئة سنة الأخيرة في العالم العربي: الفلسفة العامة وفلسفة العلوم.

٩- غرامشي (دراسات ومختارات).

١٠- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية.

١١- الرسالة الجامعة، وهي تاج رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء. »

* * *

رَابِعًا:

في مقال بعنوان «قراءة في معجم الدكتور صليبا الفلسفي»، نُشر في جريدة الثورة ١٩٧٤/٩/٥، تقول مهاة فرح الخوري:

لست بحاجة إلى التعريف بالدكتور جميل صليبا... لم تنحصر شهرته بمسقط رأسه: «القرعون» – من أعمال لبنان – ولا ببلده سورية ولا في العالم العربي فحسب، بل تعدتها إلى أصقاع مختلفة في المشرق والمغرب. ولكن لا بدّ لي أن أذكِّر به بعض من نسيه أو أعرّف به شبيبتنا الجديدة الواعية التي شرعت تدأب على البحث العلمي وتنكبّ على الدراسة والترجمة والتأليف، ولا عجب فهو مثال به يحتذى وعلى منواله ينسج.

كان في سورية تلميذًا ومعلمًا ومدرسًا وأستاذًا وعميدًا...، وفي سورية أَنتج أكبر قسم من مؤلفاته وأعمال الأدبية والفلسفية... فلا عجب إذا كان يُكِنّ لها ما يكنّ من المحبة وإذا كان يخلق المناسبات العديدة ليعود إليها زائرًا كريمًا يحمل بين طيّاته عواطف الابن البارّ بالأمّ التي ربّته والإخلاص والولاء لمن أحبّ.

لم يكتفِ معلمنا بحمل باقة جميلة متنوعة من الشهادات والإجازات والدكتورايات وينام على الثقة، بل اعتبر الحياة مدرسة كبيرة وراح يعيش بين الكتب يتسلّى بالمطالعة ويسترسل في البحث العلمي، يتسلق درجات سلمه الصغير لا ليرقى إلى المجد، بل لينزل بمجلداته القيّمة إلى مكتبه فيطالعها وينهل من محتواها.

أما في عطائه، فيبسّط أكثر المواضيع تعقيدًا ليقربها إلى العقول فتبدو لمن يتلقاها سهلة ممتعة.

علم غزير، بحر من المعرفة، سهولة في التعبير، تواضع العالم، إنسانية قلّ شبيهها... هذا هو الدكتور جميل صليبا.

تتكلم الأوساط الثقافية العلمية في لبنان اليوم وفي سواها من البلدان العربية وغيرها عن معجم فلسفي جديد من نوعه ثمرة جهود كبيرة بذلها الأستاذ الكبير، وتَعتبر هذا المعجم كنزًا ثمينًا يغني المكتبات العربية ويوسع آفاق الإنسان العربي والأجنبي على السواء.

أقول الأول من نوعه وأعني ما أقول، فهو في جزأيه الأول والثاني، فريد في تبويبه، وشموليته وفي طريقته وتنوعه. وهو يحتوي إضافة إلى الألفاظ الفلسفية، ألفاظًا علمية حقوقية، نفسية واجتماعية، ويتضمن ما يزيد على ثلاثين ألف لفظة عربية، وفرنسية، وإنكليزية ولاتينية، رتبت بالعربية حسب الحروف الأبجدية، ويشير إلى جانب كل لفظة مكان وجودها في المعجم.

شُرحت اللفظة في المعجم شرحًا وافيًا بالعربية من الناحية اللغوية ومن حيث أصلها وتحليلها واستعمالاتها المختلفة وظروف استعمالها في نصوص أتى بها قدماء الفلاسفة والكتّاب واللغويون. شرح وافٍ يدركه العاديون بقدر ما يدركه حملة الشهادات العليا والمثقفون والمفكرون.

فكلمة الإدراك مثلًا بعد أن أعطى العلَّامة صليبا معناها باللغات الثلاث، شرحها بالعربية من الناحية اللغوية أولًا، مع أمثلة وافية، ثم شرحها في الفلسفة

العربية القديمة، واستعمال «ابن سينا» لها. ثم في كليات «أبي البقاء» ثم لدى «الغزالي» وفي اصطلاحات الصوفية، ثم في الفلسفة الحديثة الخ..

وعلى هذا المنوال يسير المفكر العربي الدكتور صليبا في معجمه، أما من ناحية انتهاء اللفظات، فقد سلك الطريقة الصحيحة التي يجب على العلماء اتّباعها، ومع المصطلحات العلمية الموافقة وفي مقدمة المعجم، حددها بالقواعد الأربع الآتية:

١- اقتباس الألفاظ التي استعملها العرب القدامى مترجمة عن اليونانية فتبنّوها وأصبحت من مصطلحاتهم.

٢- اقتباس الألفاظ القديمة الموجودة لدى الفلاسفة العرب مع تبديل معناها بعض الشيء لإطلاقها على معنى حديث.

٣- ترجمة اللغات الأجنبية ووضع لفظ عربي جديد لها.

٤- تعريب اللفظ الأجنبي كما هو مع إعطائه صبغة عربية.

ومما حمل الدكتور صليبا على القيام بهذا العمل الطويل الشاق، قناعته ولا شك بغنى لغته الأم وبقيمتها الكبيرة، إذ قال في مقدمته:

«اللغة العربية من أغنى اللغات وأوسعها اشتقاقًا وأدقّها تعبيرًا، صقلتها القرائح والعقول في الماضي بضعة عشر قرنًا حتى جعلتها لغة الشعر والخطابة، واستعملها العلماء في مفردات الطب والكيمياء والرياضيات والفلسفة حتى جعلوها لغة العلم والثقافة».

«والسبب في استيعاب اللغة العربية لجميع المصطلحات العلمية أنها لغة كثيرة المرونة، لطيفة المخارج، فيها ألفاظ متباينة ومتفقة، ومترادفة ومشتقة».

ينهي الدكتور صليبا مقدمته بقوله:

«وغاية ما أرجوه الآن، أن يكون هذا العمل الذي أقدمت عليه نافعًا للخاصة والعامة على السواء، فالمعاجم قد تفتح للمراجعة أو تفتح بالاتفاق: المصادفة. ولكنها على كل حال لا بد من أن تترك في نفس من يتصفّحها أثرًا يوحي إليه ببعض التأملات المثمرة».

أما أنا فأقول بدوري للعلامة: إن عمله هنا لن يكون نافعًا للخاصة والعامّة ليس إلا، ولن يترك فقط في نفس من يتصفحه أثرًا يوحي إليه ببعض التأملات المثمرة، بل سيكون مرجعًا قيمًا، معتمَدًا لدى المترجمين والمؤلفين الجديين والمفكرين وأساتذة الفلسفة وعلم النفس والمنطق، كما سيكون مصدرًا ومرجعًا لكل طالب علم.

هذا غيض من فيض مما يقال عن المفكر العربي الكبير وعن أثر قيّم كهذا الذي ذكرت، فشكرًا له على الجهود التي بذلها بدون تحفظ في سبيل هذا العمل.

وهنا لابد من قول كلمة صغيرة:

متى نكرّم علماءنا؟

متى نعترف لهم بالجميل؟

متى نعرف كيف نشكرهم؟

* * *

وفي مقال آخر بعنوان «**عاطفة ووفاء**»، نُشر في جريدة الثورة ١٩٧٦، تقول مهاة فرح الخوري:

إن بكيتك يا أبا حبيب، فلأنني فرد من أفراد هذه الأمة... من هذا الوطن الذي يعز عليه فقدان رجالاته ومفكريه وعظمائه وعلمائه.

إن عزّ علينا فراقك يا أيها العربي الكبير، فلأننا فقدنا فيك أبًا وعميدًا وموجهًا.

إن شيّعناك يا أيها المعلم، بمهابة وخشوع، فلأننا فقدنا الوجه المهيب والاتزان والعقل الراجح.

وإن رافقناك إلى مثواك الأخير ببساطة ووقار وتؤدة فلأنك قدّست البساطة وبعدت عن كل فخفخة وعظمة، ولأنك عشت إنسانًا متواضعًا وقورًا... أبعد ما يمكن عن التظاهر...

وإن تبعناك بصمت وبهدوء، فلأنك قليل الكلام كثير التفكير، ولأنك كنت هادئًا مطمئنًا، ولأنك كنت مثالًا به يحتذى وعلى منواله ينسج...

نم هنيئًا يا أبا حبيب. تلك الأجيال التي ربيتها ودربتها ووجهتها لن تنساك...

ابنك الوحيد حبيب، وأبناؤك الكثر منتشرون في أصقاع الأرض حملة رسالة الكلمة الحق، حملة رسالة العلم والمعرفة.

مؤلفاتك باقية، آثارك تحمل رسالتك تضيء الشعلة التي حملت، والمصباح الذي به أنرت، أية شعلة هذه، أنارت عقولًا، وبلورت أفكارًا وأذهانًا، وهذبت نفوسًا تلك الشعلة لن تنطفئ...

أبا حبيب،

ستة عقود من العمل المثمر، من الإنتاج المبدع، من البحث والتحري والتنقيب والعطاء. بعثت ابن سينا وأفلاطون، أحييت ابن خلدون، رافقت الغزالي والكندي وغيرهما.

إن استمر الفلاسفة والأدباء عبرك، وإن عاشوا من خلالك وبجهود أمثالك من رجال الفكر فسوف تستمر أنت عبر هؤلاء الذين تتلمذوا على يدك ونهجوا نهجك، سوف تعيش عبر قرَّاء آثارك ومؤلفاتك المنشورة والمنتشرة عبر آرائك الباقية.

كنت سبّاقًا يا أيها المعلم في التحدث عن الاشتراكية وعن العدالة الاجتماعية مبدعًا كنت في نداءاتك، مخلصًا لعروبتك ووطنك.

في المؤتمرات كلها؛ عالمية أو محلية عربية أو غير عربية، فلسفية أو علمية أو لغوية أو تعريبية، إن كان في ذكرى ابن سينا أو الكندي أو... كان الدكتور جميل صليبا محلقًا عملاقًا. تعمّق مفكرنا في لغته الأم قدّسها وبشّر بها، قديمة وحديثة، قرآنية وعصرية. تعرَّف الآداب الأجنبية عن كثب وغاص فيها إضافة إلى الآداب العربية، ولم يتخلّ قط عن الرياضيات والحقوق والفلسفة وعلم النفس، موسوعيًّا كان، بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

عرف لغات العرب عمقًا واتساعًا، ألمّ بجوانبها كلها.

حيًّا كان المفكر الكبير جميل صليبا ممثلًا لسورية في مؤتمر روما حول الأدب العربي المعاصر عام ١٩٦١، سجّلت له آراء، حبذا لو يتبناها بعض أدبائنا وبعض

شعرائنا إذ قال: «على الأدب العربي أن ينتقل من حضيض التقليد إلى سمو الإبداع دون أن يفقد أصالته».

«أنا في الحقيقة على شدة إيماني بالتجديد وعلى شدة تعويدي لطرق أبواب جديدة في المذاهب الشعرية الحديثة كالرمزية وغيرها، إلا أنني أرى أن الشاعر العربي لا يستطيع أو لا ينبغي له أبدًا أن يضرب بثقافته العربية وتراثه عرض الحائط. وعلى قدر ما يكون متبحرًا في الثقافة العربية والأساليب التي ورثناها عن أجدادنا يكون إبداعه أتم وأوفى. يجب أن يملأ نفسه من الشعر القديم حتى يملك أسرار التكتيك العربي في خلق الصور. ومتى بلغ هذه الغاية يستطيع أن يطلق لنفسه العنان بكل حرية في الإبداع والتجديد».

ويضيف:

«يجب على كل شاعر عربي حديث أن يملأ نفسه من الشعر العربي القديم ومن الشعر الغربي حتى يعرف أين ينتهي تقليده وأين يبتدئ إبداعه وتجديده، إنه متى قرن تجربته الواعية بتجربة غيره عرف كيف يخلق قيمًا إنسانية جديدة».

إن المعجم الفلسفي الذي وضعه المفكر العربي الأصيل جميل صليبا بين أيدينا منذ سنتين، ثمرة جهود مستمرة ودأب وتنقيب دامت عشر سنوات من حياته، وأغنى به مكتبة العالم العربي والعالم الغربي على السواء.

وهذا المعجم وحده يجعل نفس هذا الرجل خالدة خلود الأزل.

فكيف إذا عرفنا أنه ابتكر ووضع وترجم إلى اللغة العربية حوالي خمسة وعشرين أثرًا قيمًا، وعشرات من الدراسات ومئات من المقالات العلمية والأدبية والاجتماعية نشرت في أفضل المجلات العربية والعالمية.

هذه المجلات نفسها فقدت عَلَمًا من أعلامها، قلمًا يكتب الكلمة الحق «وفي البدء كانت الكلمة»، فقدت فكرًا نيرًا، وبحوثًا مدروسة معللة، لا يفقد جماله ولا رونقه على الرغم من معالجته بفكر علمي، وأبحاثًا علمية تنفذ إلى القلب بأسلوبها الأدبي.

يا أبا حبيب،

لا عجب إذا كرّمناك، وإذا ما تضافرت جهود وزارة التعليم العالي وجامعة دمشق ومجمع اللغة العربية والأونسكو والندوة اللبنانية واللجنة اللبنانية لترجمة الروائع في سبيل تكريمك فأنت رائد من روّاد الفكر.

❋ ❋ ❋

خَامِسًا:

ألَّف الأستاذ: إلياس أنطون نصر الله كتابًا عن الدكتور صليبا بعنوان «**جميل صليبا - مفكرًا ومربيًا**».

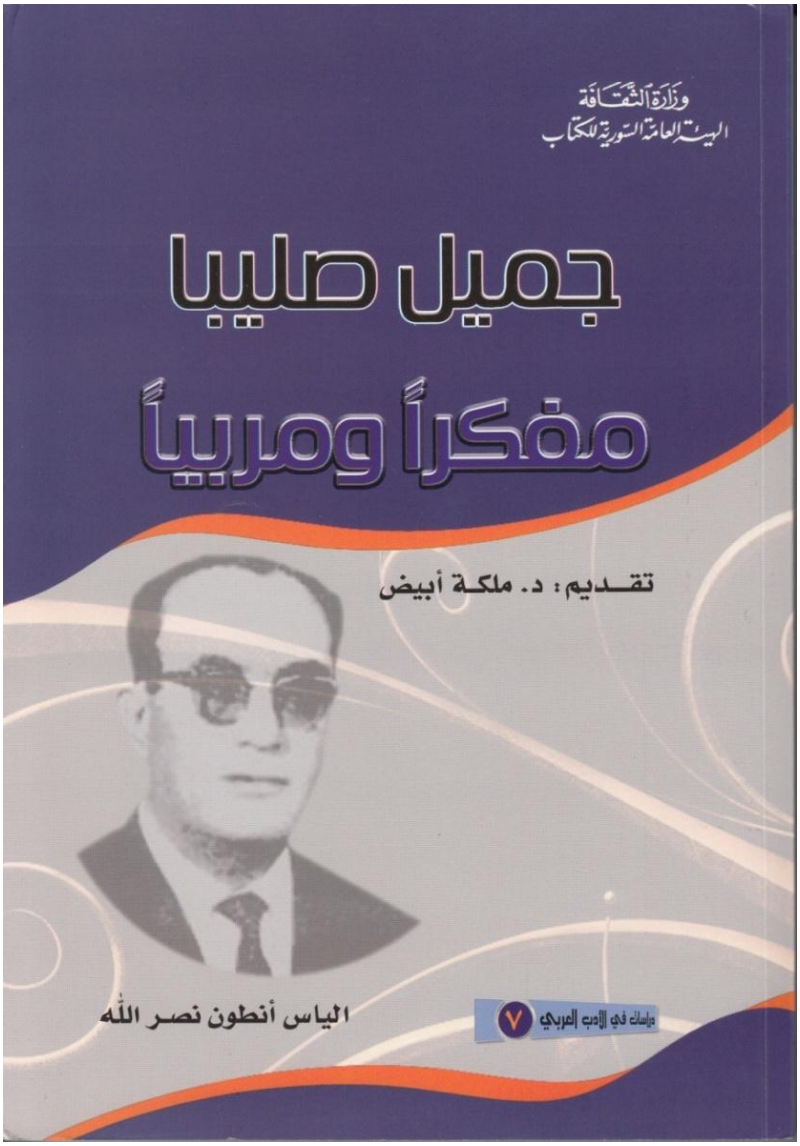

هذا الكتاب من منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة. صدر في العام ٢٠١١م، ويقع في ٢٥٦ صفحة. قدمت له الدكتورة ملكة أبيض. وقد أوفى المؤلف فيه على الغاية.

قسم إلياس أنطون نصر الله كتابه إلى أربعة فصول. الأول بعنوان (حياة جميل صليبا). تحدث فيه عن مولد صليبا وطفولته، ودراسته في دمشق وفرنسا. ثم تحدث عن عمله في التدريس، وعن نشاطاته في وزارة المعارف وخارجها، ثم عن عمله في كلية التربية، وفي مجمع اللغة العربية، وفي اليونسكو، وأخيرًا عن نشاطاته البيروتية. وختم الفصل بميزات صليبا وما يؤثر عنه.

أما الفصل الثاني فعرض فيه المؤلفُ أهم آثار صليبا، ولخَّص بعضها. وقد رتَّب المؤلفات بحسب موضوعها؛ فعدَّد مؤلفات صليبا في الفلسفة، وفي المنطق، وفي علم النفس، وفي التربية، وفي الأدب. ثم ذكر الكتب التي حقَّقها صليبا، وأردفها بالكتب التي ترجمها، ثم استعرض أعمال صليبا في التعريف والنقد، والرسائل الجامعية التي أشرف عليها.

وأما الفصل الثالث، فعنوانه (المنطلقات الفكرية الأساسية عند جميل صليبا وانعاكساتها التربوية). ووجد المؤلف أن هذه المنطلقات الفكرية تتجلى عند صليبا في الموضوعات الآتية: الله والوجود، والعروبة، والإنسان المنشود، والقومية والإنسانية، والديمقراطية وتكافؤ الفرص، والأصالة والمعاصرة، والحرية والواجب.

ثم قسَّم الانعكاسات التربوية لهذه المنطلقات الفكرية إلى ثلاثة محاور:

الأول: الانعكاسات المنطقية المباشرة؛ ذكر منها:

- الدعوة إلى تربية تقوم على الإيمان بالله والتفاؤل والنشاط
- الدعوة إلى تربية عربية الشكل والمضمون
- الدعوة إلى تعليم اللغات الأجنبية الحية
- الدعوة إلى تربية تعدّ المواطن المواطن العربي الصالح
- الدعوة إلى تربية قومية إنسانية
- الدعوة إلى تربية تقوم على الديمقراطية وتكافؤ الفرص
- الدعوة إلى تربية تنمي الإحساس بالحرية والواجب عند الفرد

الثاني: سياسة التربية والتعليم عند صليبا، وأشار إلى أنها تقوم على ما يلي:

- تعميم التعليم (تعليم الأميين، والمرأة، والبدو)
- إلزامية التعليم
- مجانية التعليم
- وحدة التعليم
- إدارة التعليم

الثالث: وسائط التربية عند صليبا؛ تحدث فيه عن:

- المناهج
- الكتاب المدرسي
- طرائق التعليم
- المعلم (أهمية المعلم، وصفاته)

وفي الفصل الرابع للكتاب وهو بعنوان (موقع جميل صليبا وأثره في الثقافة والتربية العربية المعاصرة) تحدث المؤلف عن ثلاث نقاط:

الأولى: موقع الفكر التربوي عند جميل صليبا بين الاتجاهات التربوية المعاصرة في الوطن العربي.

الثانية: المحور الرئيس لفكر جميل صليبا التربوي، تحدث فيها عن الأصالة والمعاصرة عند صليبا المفكِّر (موقفه من الماضي، ومن التجربة الإنسانية في مجال الفكر والعلم، ومن المستقبل)، وعند صليبا المربي (عدَّد فيها المآخذ التي سجلها صليبا على التربية العربية المعاصرة؛ وهي: المحافظة، والاقتباس والتقليد، والأسلوب الأوتوقراطي التسلطي). ثم أشار إلى مواقف صليبا ومقترحاته لعصرنة التربية العربية مع الإبقاء على أصالتها؛ فذكر منها الدعوة إلى (إحياء التراث الفكري القديم، ودراسة واقع التربية العربية المعاصرة ومشكلاتها، والابتعاد عن المفاهيم التقليدية للأطفال، واعتماد تربية علمية، وإصلاح دور المعلمين، وتعزيز الجهاز الفني في وزرات التربية، ونشر الوعي التربوي في المجتمع، والانفتاح على تجارب الدول الأخرى والإفادة منها، والعناية بالشبان...)

الثالثة: أثر جميل صليبا في الثقافة والتربية العربية المعاصرة (على صعيد الفلسفة، وعلم النفس، والتربية، والتحقيق، والترجمة)

* * *

سِتَادِسِتًا:

نشر الأستاذ إليان جرجي خباز في موقع قنشرين الإلكتروني مقالًا بعنوان «الدكتور جميل صليبا-المفكر والمربي العربي المعاصر»، يقول فيه:

خلال بحثي عن جذور الأديب الألماني العالمي رفيق شامي (سهيل فاضل) السوري الأصل والمولد والهوى تعرفت على الأستاذ إلياس انطون نصر الله ابن معلولا ومؤرخها في عصرنا الحديث، والذي قام مشكورًا بإهدائي نسخة من كتابه عن الراحل الكبير الدكتور الأستاذ جميل صليبا.

جذبتني صفحات الكتاب الذي راجعتْه وكتبتْ مقدمته الأستاذة الدكتورة ملكة أبيض، وشكَّل ملحق الكتاب بكل جدارة كتابًا آخر يشكر مؤلفه على جهده؛ إذ أشار إلى آثار الدكتور الراحل جميل صليبا المكتوبة والمجالات التي تناولتها من عربية وأجنبية، وذكر أيضًا المراجع التي اعتمد عليها لتأليف الكتاب من كتب عربية ومترجمة إضافة إلى الأبحاث التي نشرها الراحل الخالد في المجلات والمواضيع التي تناولتها، كما نوه بالمقابلات التي قام بها والأحاديث التي نقلها بكل أمانة، وخير ما ذكره هو ملف الدكتور جميل صليبا الشخصي المحفوظ لدى مجمع اللغة العربية بدمشق، وكذلك الملف الشخصي المحفوظ لدى كلية التربية في جامعة دمشق، وسجلات مكتبة كلية التربية في جامعة دمشق.

وقد تناول الكتاب في فصول أربعة مسيرة الدكتور جميل صليبا وعطاءاته، ففي

الفصل الأول تحدث الكتاب عن حياته ونشأته ودراسته وعمله في وزارة المعارف ونشاطه في كلية التربية وفي مجمع اللغة العربية وفي اليونسكو.

فعن ولادته ودراسته يذكر: "ولد جميل بن حبيب الخوري داود صليبا في ٧ شباط من عام ١٩٠٢ في قرية القرعون من قضاء البقاع الغربي من محافظة البقاع، وكان والده يعمل متعهدًا ومعماريًّا، وانتقل إلى دمشق مع أسرته للعمل في شق طريق دمشق – درعا، والتحق جميل صليبا بمدارس الآسية ومن ثم بالمكتب السلطاني العثماني، وتابع في عام ١٩١٨ دراسته في مكتب عنبر وحصل على شهادة الدراسة الثانوية منه عام ١٩٢١، وأوفدته وزارة المعارف السورية إلى باريس لمتابعة تحصيله العالي، وأدخل صليبا في فرع الفلسفة من كلية الآداب في جامعة السوربون، وإضافة إلى تمكنه وإتقانه للفرنسية حصل على دبلوم التربية من معهد علم النفس في عام ١٩٢٣، وعلى درجة الإجازة في الآداب– فرع الفلسفة في عام ١٩٢٤، وعلى درجة الإجازة في الحقوق في عام ١٩٢٦، وقدم إلى جامعة باريس أطروحة الدكتوراه عام ١٩٢٦ وكانت بعنوان: "دراسة في ميتافيزيقية ابن سينا"، وفي عام ١٩٢٧ قدم أطروحته المكملة بعنوان: "نظرية المعرفة على مذهب المدرسة الاجتماعية الفرنسية"، ومنحته جامعة السوربون درجة الدكتوراه في الآداب – قسم الفلسفة، وكان أول عربي سوري يحمل هذه الشهادة في العلوم الإنسانية.

وبعد عودته للوطن عين مدرسًا لمادة الفلسفة في مكتب عنبر، وكلف بعدها بتدريس هذه المادة في مدارس الآسية التي عين فيها مديرًا عامًّا عام ١٩٣٠، حيث قام بتعريب المادة التي كان يدرسها، وفي الآسية خصص قاعةً للمخبر وعمل على تطويره وتوفير الأجهزة اللازمة، كما أسس خزانة للكتب لتوفير المراجع المناسبة للمدرسين والطلاب.

وكذلك عرض في الفصل الثاني ولخص أهم آثار الدكتور صليبا التي ألفها في الفلسفة والمنطق وعلم النفس والتربية والأدب، وأيضًا ذكر ولخص كتبه المحققة والمترجمة وأعماله في التعريف والنقد والرسائل الجامعية التي أشرف عليها.

وتحدث الفصل الثالث عن المنطلقات الأساسية عند الدكتور صليبا وانعكاساتها التربوية فمن إدراكه لمفهوم الإله بقوله: "وجود الله المهيمن على الدهر والنور المحيط بالظلمات، والعقل الهادي إلى الرشاد، كل ذلك سيولد في قلوبنا عزاء واطمئنانًا، ويقلب سخطنا إلى رضًا، وقسوتنا إلى رحمة.

وأما عن العروبة فقد كان ماضي العرب وتراثهم وحاضر العرب وواقعهم والمستقبل الذي يطمحون إليه مصدرًا للدكتور صليبا فهم "فكرة وعمل وعقيدة وأمل، تجمع بين الاستمداد من الماضي، والاقتباس من الحاضر، والنزوع إلى المستقبل، لا بل هي حقيقة متجددة، وإيمان وجداني، ووثوق عقلي، وتقدمية ديمقراطية".

وأدرك صليبا أهمية اللغة العربية في حياة العرب القومية وحارب كل مواقف التشكيك فيها إذ قال: "وإذا كان هنالك لغات تهبط بالفكر من السماء إلى الأرض، أو تزحف به على وجه الطبيعة، فإن اللغة العربية ترفع الفكر من الأرض إلى السماء وتحلق به في الأعالي بأجنحة قوية لأنها من أغنى اللغات وأوسعها اشتقاقًا وأدقها تعبيرًا".

وأما سمات المواطن العربي الصالح فيرسمها صليبا بقوله: "إن المواطن العربي لا يكون صالحًا إلا إذا كان إنسانًا صالحًا، ينبغي له أن يكون عالمًا عاملًا، قوي الإرادة حسن الأخلاق شديد التفكير، متفائلًا بالخير، متمسكًا بمبادئ الحق، مؤمنًا

بالمثل العليا، مدركًا لحقوقه وواجباته، مشبعًا بروح التضامن والتعاون، عاملًا للمصلحة العامة".

وأما الديمقراطية فحسب الدكتور صليبا هي: "سيادة الشعب، والمساواة، والعدل، والحرية، والكرامة الإنسانية، فلا مساواة بلا حرية، ولا حرية بلا مساواة، ولا سيادة للشعب إذا منع أفراده من التمتع بحرياتهم الطبيعية والقانونية".

وأما الحرية والواجب فهما مفهومان متلازمان عند الدكتور صليبا إذ يقول: "ومن شروط الحرية أن تكون منظمة في حدود القانون، فلا تنقلب إلى فوضى اجتماعية وأن تكون مصحوبة بعدل اجتماعي فإذا شط أحد الأفراد في حريته، منع غيره من التمتع بحقه، فلا بد للمجتمع إذًا من وازع مشترك وهذا الوازع هو القانون".

وأما مفهوم صليبا للتربية فقد حدد وظائفها كالتالي: فمن وظيفة فردية إلى وظيفة اجتماعية إلى وظيفة اقتصادية إلى وظيفة قومية إلى وظيفة إنسانية. وعلى خلاف الكثير من المفكرين والمربين العرب فقد أوصى الدكتور صليبا بتدريس اللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية، وكما أوصى بضرورة تدريس لغتين أجنبيتين في التعليم الثانوي.

وتحدث الفصل الرابع عن موقع الفكر التربوي عند الدكتور صليبا، وعن المحور الرئيسي لفكره من الأصالة والمعاصرة، وكذلك عن أثره في الثقافة والتربية العربية المعاصرة. ماذا بوسعي أن أنقل عن كتاب الأستاذ الياس نصر الله في إيفاء حق الواجب بالراحل الخالد الدكتور جميل صليبا، والكتاب بحر تعددت شواطئه، وصفحاته رمال توزعت حباتها كدرر في موانئ العالم.

فمن حفل التأبين الأربعيني الذي أقيم على مدرج جامعة دمشق في ٢٠/ ١٢/ ١٩٧٦ حيث تقاطرت النخبة من مفكري شعبنا ومثقفيه لتشارك أمتها في خسارة هذا الرجل وتعداد مناقبه، إذ قال الدكتور المرحوم محمد الفاضل بوصفه رئيس جامعة دمشق: "يتيح لنا الاحتفال بذكرى الراحل الكبير جميل صليبا أن نتكلم عن رمز جامع، يجدر بنا نحن الذين عاصرناه أن نتعمق فيه، ونستخلص دلالاته، ويجدر بأجيالنا الطالعة على وجه الخصوص أن تستهديه وتسترشد به". وقال الأستاذ حافظ الجمالي أيضًا: "فإن ودّعنا الدكتور صليبا اليوم، فلكي نزفه إلى هذا العالم الجديد، عالم الذين لا يموتون... ذلك أن قفزة عقلية من عدة قرون حضارية هي التي تحققت على يد هذا المعلم الكبير". وقال الأستاذ الدكتور المرحوم قسطنطين زريق: "لقد كان الدكتور صليبا في أعماله التربوية والتعليمية والإدارية من صنعة الرجال، وما أكثر ما صنع وما أجداه، وما أجل عطاءه في هذا المجال".

وكما لا يجب أن أنسى ذكر بعض المجلات التي شارك في إصدارها والكتابة فيها فمن مجلة (المعلمين والمعلمات) إلى مجلة (الثقافة) ومجلة (التربية والتعليم) ومجلة (الطليعة) ومجلة (كلية التربية) ومجلة (المعلم العربي) ومجلة (الحديث) الحلبية ومجلة (الطريق) البيروتية ومجلة (العربي) الكويتية ومجلة (الإنسانية) الدمشقية ومجلة (النعمة) الأرثوذكسية الدمشقية ومجلة (المجمع العلمي العربي).

ومن الجدير بالذكر كمية الكتب التي ألفها وترجمها والمحاضرات التي ألقاها، والمناصب التي استلمها والرسائل الجامعية التي أشرف عليها، والتي كانت وراء شهرته كمفكر قومي مخلص والتي دفعت مجمع اللغة العربية بدمشق لانتخابه عضوًا

عاملًا فيه عام ١٩٤٢، وإلى انتخابه في ٢٤/ ١١/ ١٩٤٣ عضوًا في لجنته الإدارية وحتى تقديمه لاستقالته عام ١٩٦٤، وحسب الدكتور الخطيب أفاد المجمع منه "مفكرًا عربيًّا بارزًا له وزنه، كما استفاد هو من المجمع فركز معلوماته تركيزًا جعله في مصاف العلماء"، وأراد المجمع العلمي العربي تكريمه، فرشحه لنيل الجائزة التقديرية للعلوم الاجتماعية في عام ١٩٦٠، وكرمته وزارة التعليم العالي وكلية التربية بإطلاق اسمه على إحدى القاعات، كما كرمه مجلس محافظة مدينة دمشق – بناء على اقتراح مجمع اللغة العربية – بإطلاق اسمه على أحد شوارع المدينة، كما أطلقت وزارة التربية اسمه على إحدى ثانويات دمشق.

وأود أن أذكر كذلك البعض ممن كتبوا عن الدكتور صليبا ومنهم الأديبة مهاة فرح الخوري التي كتبت مقالًا في جريدة الثورة السورية بتاريخ ٥/ ٩/ ١٩٧٤ تحت عنوان "قراءة في معجم الدكتور صليبا"، وكذلك مقالًا نشرته في العدد ٤١٩٥ لعام ١٩٧٦ وكان تحت عنوان "عاطفة ووفاء"، والأديب عيسى فتوح الذي كتب في عددي مجلة المعرفة ٢٢٥-٢٢٦ لعام ١٩٨٠ مقالًا تحت عنوان "المفكر العربي جميل صليبا"، كما كتب عنه الأستاذ إلياس نصر الله عدة مقالات نُشرت في المجلات الأدبية. هذا وقد شيعت دمشق راحلها الكبير في السادس عشر من شهر تشرين الأول عام ١٩٧٦ حيث نقل إليها من بيروت التي وافته فيها المنية في الثاني عشر من هذا الشهر. رحمك الله أيها الرجل، وشكر وعرفان أمتك العربية يرافقونك حتى يوم الحساب والقيامة.

* * *

سَابِعًا:

بتاريخ ٢١ آذار ١٩٥٧ ألقى الدكتور صليبا - وكان آنذاك عميدًا لكلية التربية في دمشق محاضرةً في «الندوة اللبنانية»؛ فقدَّمه رئيس الندوة البحاثة ميشيل أسمر قائلًا:

«إننا لسعيدون أن يتولى الدكتور جميل صليبا بَحْثَ الشأن الثقافي على منبرنا... محاضرنا الممتاز واحد من قلة كريمة في شرقنا العربي تمتّ إلى الفلسفة بصلة وثقى. هو ابن الفكر الأصيل، جمعه في عقله تراثًا تليدًا تكنّز منذ انطلاقه عند اليونان حتى «برغسون وغبريال»، من «سيل» بالأمس القريب واليوم، مرورًا بـ «توما الأكويني» و«ابن رشد» و«الغزالي» و«ابن سينا»...

ويتابع ميشيل أسمر قائلًا:

«يعلّم الفلسفة في كلية التربية بالجامعة السورية ويتولّى عمادة الكلية، يبحث وينقّب في مؤلفات الفلاسفة العرب وينشرها بالطبع، سائغة لعقول النشء. يمثل بلاده بكفاءة مرموقة في المؤتمرات العلمية الإقليمية، وتنتدبه اليونسكو ممثلًا لها في اللجنة الدولية لترجمة الروائع. هذا إلى جانب مكارم وأخلاق تضيف إلى تأثير نشاطه في عالم الفكر، فعالية في الحقل الإنساني البنّاء».

* * *

ثَامِنًا:

يقول الدكتور يحيى عبد الرؤوف جبر (أستاذ اللغة العربية في جامعة النجاح الوطنية):

يعدّ «جميل صليبا» إضافة إلى «قدري طوقان» و «عمر فروخ»، أحد ثلاثة شاميين عُرفوا بتفوقهم العلمي في العصر الحديث، وبجهودهم الكبيرة في خدمة العلم والتراث العلمي العربي، إذ عمل الثلاثة إلى حد كبير بإماطة اللثام عن إسهامات المسلمين والعرب المهم في تقدم البشرية، والقيام على العلوم المختلفة قرونًا كثيرة ابتداء من القرن الثامن الميلادي وإلى أواخر القرن السابع عشر.

* * *

تَاسِعًا:

وممن كتب عن الدكتور صليبا:

- جبرائيل بشارة (جميل صليبا) الموسوعة العربية
- عيسى فتوح (المفكر العربي جميل صليبا) مجلة المعرفة، العددان ٢٢٥-٢٢٦ عام ١٩٨٠
- كندة السوادي (جميل صليبا - مؤسسة معرفية في رجل) صحيفة تشرين ٢٠١٢

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الفصل الخامس

وقائع حفل تأبين جميل صليبا

تكريمًا للمغفور له الدكتور جميل صليبا أقامت جامعة دمشق حفلًا تأبينيًّا شارك فيه كبار الشخصيات العلمية والفلسفية من سورية ومصر، وشعراء ملهمون، ونجل الفقيد: حبيب صليبا.

وبقراءة وتدقيق ما ورد من شهادات صادقة صريحة وبليغة بالفيلسوف الكبير والعلَّامة جميل حبيب صليبا، أجد من واجبي أن أشكر كلَّ الخطباء على ما أتحفونا به من صدق القول في زميلهم حامل أول دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس في سورية ... وهل يعرف الفضل إلا ذووه؟

أذكّر بما استهل الدكتور قسطنطين زريق كلمته قائلًا: «ما أكثر ما حصّل، وما أغزر ما أعطى»

كلمة الأستاذ الدكتور محمد الفاضل

رئيس جامعة دمشق

أيها السادة الوزراء

أيها الحفل الكريم

يتيح لنا الاحتفال بذكرى الراحل الكبير جميل صليبا أن نتكلم على رمز جامع، يجدر بنا نحن الذين جايلناه أو عاصرناه أن نتعمق فيه ونستخلص دلالاته، ويجدر بأجيالنا الطالعة، على وجه الخصوص، أن تستهديه وتسترشد به.

وأعني بالرمز الجامع أن فقيدنا كان يشكل، في حياته ومجمل نتاجه، مجموعة غنية متنوعة من العلاقات فيما بين النظر والممارسة، تساعدنا كثيرًا في فهم جوانب مهمة من تاريخنا الثقافي المعاصر.

ولعلّ من الأوجه البارزة لهذا الرمز أن صاحبه اتّخذ من ثقافته ومعرفته وسيلة لمزيد من التأصل في شعبه وفي تراثه، ولارتباط أوثق وأشد بقضايا الوطن وبالمشكلات التي يواجهها. ويعني ذلك أنه لم يؤخذ بالتجريد النظري الذي يؤدي إلى نوع من العزلة عن المجتمع، في تفجراته وتغيراته، غير أنه، في الوقت نفسه، لم يترك للمسائل الآنية العابرة أن تطغى على وعيه، فتعزله عن التأمل العلمي، وتبعده عن الرؤية الواضحة وعن الدقة والإحاطة.

وهكذا شارك الفقيد الكبير على صعيد الممارسة، في النضال الوطني الذي خاضه هذا القطر من أجل الاستقلال، وتثبيت الشخصية الوطنية، وجلاء أهدافها. وشارك أيضًا إلى جانب ذلك، في النضال الاجتماعي من أجل تحرر داخلي يتيح للمجتمع أن يغير بنيته التقليدية وأن ينهض على أسس جديدة يكون فيها للحرية والعلم والتقدمية واحترام الذات الإنسانية، مكان الصدارة.

وفي هذا ما يفسر اهتمام فقيدنا العظيم بالتربية، والمسائل التي تطرحها في مجتمع كالمجتمع العربي. وفي هذا ما يوضح، بالتالي، اهتمامه بالطالب كعنصر طليعي، وتهيؤه المستمر لتفهم قضايا الطلبة وتعزيز كل ما من شأنه أن يجعل مستقبلهم أعمق رسوخًا، وأكثر إشراقًا.

بيد أن هذا الالتزام العملي الذي مارسه الراحل الكبير، لم يكن إلا امتدادًا وتكملة لالتزامه النظري، وبخاصة في جوانبه الفلسفية. فنحن نعرف جميعًا أن جميل صليبا من الرواد القلة الأوائل الذين مهدوا الطرق للبحث الفلسفي المعاصر. فقد عكف، منذ أواخر العشرينيات، على موروثنا الفلسفي، يدرسه ويكشف عن خصائصه وعن الدور الذي لعبه في مراحل نشأته الأولى، وعن الدور الذي يمكن أن يلعبه في الحاضر والمستقبل. ومن هنا عُني، من جهة، بتبسيطه لغايات تدريسية تربوية، ولكي يكون في متناول أكبر مجموعة من القراء، وعُني من جهة ثانية بالكشف عما ينطوي عليه من قيم تتجاوز عصرها، مقارنًا بينها وبين ما يقابلها من الآراء والأفكار في النظريات الفلسفية الغربية، مؤكدًا أصالة النظرة العربية وريادتها، في أمور كثيرة.

وفي ذلك كله كان الفقيد، طيب الله ثراه، مثلًا رائعًا للموضوعية في البحث وفي الحكم. ولقد انعكست هذه الموضوعية في حياته اليومية، فلم يدخل معترك الخصومات، ولم تستهوه إغراءات الظهور والشهرة، وإنما ظل يعيش في تواضع الباحث العارف وبساطته، يؤثر البعد عن أضواء المجتمع، لكي يظل قريبًا إلى أضواء البحث والعلم.

وفي ميدان التفاعل بين الثقافات، كان الراحل الكبير يمثل جسرًا من الحوار والتفاعل بين الفكر العربي والفكر الغربي. وكان في هذا الحوار وهذا التفاعل حريصًا على إظهار الأصالة العربية لكن دون عصبية، وحريصًا، في الوقت نفسه على تقبل الجيد المفيد أنّى رآه في مختلف التيارات الفكرية، لكن دون تبعية. وإذا تذكرنا بعض الكتب التي نقلها إلى العربية، وخصوصًا كتاب «مقال في الطريقة» أو «المنهج لديكارت»، يتجلى لنا بشكل أوضح الدور الريادي الذي لعبه فقيدنا في تجديد الفكر العربي المعاصر وترشيده. ولعل في هذا ما يفسر حرصه الشديد على ضبط المصطلح الفلسفي العربي، مما دفعه إلى أن يضع معجمًا لهذا المصطلح يساعد في إخراجه من الاضطراب، والفوضى، وعدم الدقة وتعددية المعنى.

في هذا كله، يمثل جميل صليبا طليعة مرحلة كاملة في تطور هذا القطر، من الناحية الفلسفية-التربوية، على الأخص، وفي حركة البحث الفلسفي العربي، في البلاد العربية كلها، بشكل عام، وهي المرحلة التي يمكن أن نسميها، في تاريخنا الثقافي المعاصر، بمرحلة التنوير.

* * *

كلمة الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق

أصحاب السيادة، سيداتي سادتي

ما أكثر ما حصّل، وما أغزر ما أعطى !

لست إلى المال والمتاع أشير، ولا إلى الجاه والسلطة أقصد، وإنما إلى مقومات الفكر والنفس، ومكوّنات الشخصية الفردية والوطنية.

كان فقيدنا الجليل الدكتور صليبا من رواد بني قومه إلى التحصيل الجامعي العالي في بلاد الغرب، في مجال الفلسفة على وجه التخصيص. وقد أقبل على هذه الدراسة لا إقبال المغتر بنفسه المكتفي بأقل جهد الساعي أولًا إلى الشهادة واللقب، وإنما إقبال المتواضع المتعطش المتقصد جوهر الثقافة ولباب العلم. فكانت أطروحته في إلاهيات ابن سينا معلمًا مجليًا في البحث العربي المبتكر في الفلسفة الإسلامية، وجاءت الحصيلة الثرية، الفلسفية والإنسانية بوجه عام، التي جمعها خير زاد له للمهام التربوية والعلمية التي كانت تنتظره في بلده.

لم تكن السنوات العدة التي قضاها في باريس والتي تتوجت بالأطروحة والدكتوراه، كما كانت للكثيرين غيره، خاتمة المطاف وغاية المرتجى، بل كانت نقطة بداية ومنطلقًا لبحث مستديم وجهد دراسي دائب طيلة خمسين سنة حتى آخر العمر. ظلّ جميل صليبا طالبًا للعلم ليل نهار، يحدوه إلى كشف الحقيقة ونشرها إدراكه العميق بأن أول شروط العلم الحنين إليه، وأن من انطفأ فيه هذا الضرام فقد

نزع عن نفسه صفة العلم وخسر مزاياه. ظل منكبًّا على التحصيل، وعلى التزود بنتاج الفكر، وعلى ارتياد آفاق المجهول. ظلّ يجمع وزنات المعرفة، مضيفًا الجديد منها إلى القديم، حتى تكوّنت له منها ثروة قلّ من أقرانه من ضاهاه فيها. ما أكثر ما حصّل وما اغتنى !

على أنه لم يدفن هذه الوزنات في الأرض ولم يقفل عليها في زوايا عقله ونفسه، بل أخرجها للملأ ووظفها واستثمرها، فازدادت بالعطاء، وغزرت بالإنفاق.

وظفها في ثلاثة مجالات رئيسية: في التعليم، وفي الإدارة، وفي البحث والتأليف. فكان نتاجه زاخرًا في كل منها، وفيها معًا. أقول فيها معًا، إذ عزّ بين الناس من يستطيع – كما استطاع فقيدنا– أن يوفق بين مطالب هذه المهمات الثلاث التي غالبًا ما تتعارض وتتناقض وتشتت فكر المرء وجهده. ويكفينا أن نلقي نظرة على مؤلفات جميل صليبا: كتبًا ومقالات، أبحاثًا مبتكرة أو دراسات عامة أو ترجمات أو تحقيقات لأصول أو إنجازات معجمية، لنتيقن غزارة نتاجه في حقول التأليف. وليس هذا فحسب، فما العبرة بالكمّ وحده، وإنما هي قبل ذلك بالكيف والجودة، ولولاهما لما احتل فقيدنا الكريم المرتبة الرفيعة المرموقة التي له في العالم العربي، ولدى المستشرقين المطّلعين في عالم الغرب.

على أن ثمة إنتاجًا لعله أهم من إنتاج المعرفة بالابتكار أو التعميم، وبخاصة في المرحلة التي امتدت عليها حياة الفقيد. إنه صَنَعَ الأشخاص، رجالًا ونساء، بالتعليم والتربية، سواء في النشاط التدريسي المباشر أو في العمل الإداري غير المباشر. ونحن العرب الذين نطمح اليوم إلى التنمية في شتى نواحي كياننا ونلح في طلبها، حماية لهذا

الكيان وتعزيزًا له وتحريرًا وترقية لأبنائه، خليقون بأن نعتبر بما أصبح واضحًا من خبرات الجهود الإنمائية في مختلف أصقاع العالم، وهو أن العنصر الفعال والعامل الحاسم في هذه الجهود والمحدد لجدواها وغناها إنما هو العنصر البشري المتطور دربًا وعقلانية وخلقًا. على ضوء هذه الحقيقة تبدو أهمية الأثر القومي لإسهام الدكتور صليبا الوافر في تكوين هذا العنصر وتطويره.

لقد عاد فقيدنا من تحصيله في الغرب وهذا البلد في مفتتح تطوره التعليمي: المدارس قلة، والجهاز التعليمي ضئيل، والإدارة التعليمية الحكومية في طور التأسيس. فشارك في التعليم الثانوي، ثم انتقل إلى وزارة التربية والتعليم، وشغل خلال السنوات الطويلة التي قضاها فيها معظم وظائفها الرئيسية، إدارة وتفتيشًا وتخطيطًا وتنظيمًا تربويًّا منتهيًا بالأمانة العامة. وتحوّل منها إلى الجامعة، فعمل فيها أستاذًا وعميدًا ورئيسًا بالوكالة، جامعًا هنا أيضًا بين الجهود التدريسية والإدارية والبحثية، قارنًا بين هذه الجهود كلها، ومعززًا البحثية منها بخاصة بعضويته في مجمع اللغة العربية بدمشق، الذي خدمه بالجد والإخلاص والفاعلية ذاتها التي عرف بها في مختلف مهماته ونشاطاته.

أجل! لقد كان الدكتور صليبا في أعماله التربوية، التعليمية والإدارية، من صنعة الرجال. وما أكثر ما صنع وما أجداه، وما أجلّ عطاءه في هذا المجال!

ولو شاء أحدنا أن يرد ثراء فقيدنا المزدوج - في التحصيل وفي العطاء - إلى عوامله، لوجدها في الميزات المتعددة التي اتسمت بها شخصية جميل صليبا، والتي أحاطته بهالة من التقدير والاحترام، حيثما حلّ، سواء وافق من حوله على آرائه ومواقفه أو خالفوه فيها.

ويخيّل إلي أن أهم هذه الميزات التي يمكن حصرها في هذه الكلمة الموجزة هي ثلاث:

أولها ما ذكرت من حنين ضارم إلى المعرفة، ومن جهد دؤوب في كشفها ونقلها وتعميمها، وفي استخدامها لتكوين شخصيات حيّة، مدربة وعاقلة وفاضلة، مؤهلة للانطلاق في مسالك التقدم الفردي والقومي.

والثانية تلك المنهجية الدقيقة الصارمة التي اكتسبها في دراسته الفلسفية الجادة في فرنسا، والتي كان للمنطق وللأسلوب العلمي فيها نصيب وافر. فإنك إذا سمعته مدرسًا أو محاضرًا أو محدثًا، أو إذا قرأت له كتابًا أو مقالًا، لوجدت في ذلك كله انتظامًا عقليًّا مدهشًا، واتساقًا فكريًّا نادرًا. وجدت تمييزًا واضحًا بين الكليات والجزئيات، وتدرجًا منطقيًّا من فكرة إلى أخرى، وتنسيقًا شاملًا ضابطًا للفكَر جميعًا. وجدت حرصًا على إعطاء كل جانب من جوانب الموضوع حقه من العناية حسب أهميته وموقعه من البحث، دون إسراف أو تقتير أو إخلال بتماسك البنية وتوازنها. وجدت، بإيجاز، صورة صادقة لعقلانية موضوعية منتظمة. ويخطئ من يظن أن هذا الانتظام العقلاني هو موهبة طبيعية أو منحة خارجية. إنه، على العكس، كسب داخلي سبيله اليقظة الدائمة والنقد الذاتي وترويض العقل للتغلب على الوهم، ومحاسبة النفس لصيانتها من عبث الهوى. ولقد تجلى هذا الانتظام العقلاني في نشاط جميل صليبا العملي تجليه في تفكيره وتعليمه. فكان من ذلك أسلوبه الموضوعي المرتب في الإدارة، واهتمامه بالتخطيط، وتقديمه لأصول المشكلات على فروعها، وحرصه على تناول أية مسألة من المسائل في نطاق المحتوى الواسع الذي يشملها وباعتبار ترابطها

بسواها وتفاعلها وإياه. وإذا صح القول الفرنسي أن الإنسان هو أسلوبه، وإذا اتخذنا الأسلوب بمعناه الفكري لا الأدبي فحسب، فإن منهجية جميل صليبا العقلانية هي أصدق صورة لشخصيته وأبرز تعبير عنها.

وهذا يقودنا إلى الميزة الثالثة، والأهم، التي تحلّت بها تلك الشخصية. وهي ميزة تدلنا على أن الإنسان هو أكثر من أسلوبه الأدبي أو الفكري، وأرفع. إنه خلقه وقيمه أولًا. هنا الأصل والمصدر. وما لم يكن الأصل حيًّا والمصدر صافيًا نقيًّا، فلا ضمان للفكر مهما ينتظم، ولا حرمة للأسلوب مهما يحسن ويستقيم. وإذا كنا لا نجد في شخصية فقيدنا وآثاره تناقضًا داخليًّا أو خلخلة ينفذ الفساد من خلالها، فلأن جميل صليبا الإنسان: بخلقه وفضائله، بتواضعه ونزاهته وصفاء نفسه، كان المهيمن على ما فكّر وما علّم وما عمل، ولأن القيم التي كان يؤمن بها ويسير على هديها كانت مبعث حياته بجُماعها.

أيها السيدات والسادة

إن اجتماعنا في هذا الحفل لدليل على أن شخصية الدكتور جميل صليبا المتميزة وحياته الخيّرة قد تركت آثارها الحية في نفوسنا جميعًا: أقارب، وزملاء، وأصدقاء، وطلبة، ومواطنين. بورك لنا، أفرادًا وأمة، ما كان وما أعطى، وما سيكون لنا من هذا العطاء ويبقى.

* * *

كلمة السيد الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور

رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة

ألقاها بالنيابة الاستاذ الدكتور شكري فيصل

جميل صليبا بين رواد الفكر الفلسفي المعاصر

عرفته زميلًا كريمًا، وأخًا صادقًا، عفّ اللسان، حلو العبارة صافي الطويّة، لا يتكلم إلا عن بيّنة، ولا يعرض لما لا شأن له به. وعرفته أيضًا باحثًا مدققًا، وأستاذًا فاضلًا، أحب تلاميذه وأحبوه. يؤثر الدرس والبحث على كل ما عداهما، أولع بهما، ووقف عليهما حياته. طابت نفسه لقاعة الدرس، فأعطى فيها أجزل العطاء، علّم وشرح في أكمل عبارة وأوضح بيان. واطمأن قلبه لصومعة البحث، فقضى فيها الساعات تلو الساعات، ووجد فيها سعادة لا تعادلها سعادة. واستطاع أن يغذي المكتبة العربية بغذاء وافر. ويعنيني أن أقف قليلًا عند جميل صليبا الباحث الفيلسوف.

ولا سبيل إلى بحث أو فلسفة حقة إلا في جو من حرية الفكر والقول. وفي عصور القهر والغلبة تختفي الفكرة الحرة، وتتضاءل وراء صيغ معقدة وعبارات غامضة. ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي طغت على العالم العربي ظلمة قاتمة، ضاق

فيها الفكر والأفق، فكثر المحرّم، وقلّ المباح، وأجدبت العقول، وأغلق كثير من معاهد العلم الكبرى، وما بقي منها ظلَّ يتحرك في نطاق ضيق. وكانت الدراسات الفلسفية أول المحرمات، حاربها من حاربها، وأنكرها من أنكرها، واتُّهم دارسوها بالإلحاد والزندقة. وإذا كانت العلوم قد قسمت في العهود الماضية إلى منقول ومعقول، فإن الأخيرة منها ما كانت تصدق إلا على علوم البيان والبلاغة والبديع، والمنطق، وآداب البحث والمناظرة، على أنهم قالوا: من تمنطق فقد تزندق.

وفي القرن التاسع عشر، هبَّ نسيم الحرية، وبدأنا نعود إلى أنفسنا، نفكر في استقلال، وننظر في أفكار غيرنا. ولا شك أن الحملة الفرنسية كانت القبس الذي انبعث منه أول شعاع للبحث والتجديد. وتلتها حركات استقلالية ردت إلى العرب ثقتهم بأنفسهم، ودفعتهم إلى التسلح بسلاح العلم الحر الصريح. وصاحبها وعي حي بن يقظان يطالب بالنهوض والتقدم، ويسعى إلى إحياء مجد الماضي ومتابعة سير الحاضر، وعزز ذلك كله دعوة إلى التحرر الفكري حمل رايتها نفر من المصلحين على رأسهم جمال الدين الأفغاني (١٩٢٠). وتلاهم تلاميذ وأتباع لهم مخلصون كان لهم شأن في الحركة الفكرية في القرن العشرين، ويمكننا أن نذكر من بينهم لطفي السيد، ومصطفى المراغي، وكرد علي، ومصطفى عبد الرازق، وطه حسين، وأحمد أمين.

وفي هذا الجو نشأ جميل صليبا، وتربى تربية عربية صافية، تزود بزاد وفير من علوم اللغة وآدابها، ونهل من حياض الثقافة العربية على اختلاف ألوانها. ولمح فيه كرد علي آيات النجابة والجد في التعلم والتحصيل، فأوفده في بعثة إلى باريس. وهناك جوَّد لغته الفرنسية، واستكمل درسه، واتجه بخاصة نحو الفلسفة الإسلامية.

وكأنما أحسَّ بأن حركة الاستشراق آخذة في الأفول، وأن المستعربين إذا كانوا قد خدموا التراث الإسلامي في القرن الماضي وأوائل هذا القرن فإن على العرب أن يضطلعوا بالعبء معهم، وأن يسهموا في هذا المضمار. وراقه الفكر الفلسفي الإسلامي، فتخصص فيه وتعمق في درسه، ووقف عليه الخمسين سنة الأخيرة من حياته. قضاها باحثًا ومعلمًا، مؤلفًا ومترجمًا، محققًا وناشرًا. وخطا بالبحث الفلسفي خطوات فسيحة، لا في سوريا ولبنان وحدهما، بل في العالم العربي جميعه. واسمعوا إليه يقول: «لما بدأنا تعلُّم الفلسفة في العقد الثالث من القرن العشرين لم يكن بين أيدينا في اللغة العربية إلا عدد قليل من الكتب: مثل كتاب **أصول الفلسفة** لأمين واصف، و**مبادئ الفلسفة** لأحمد أمين، و**تاريخ الفلسفة** لمحمد بدر، ولكنا حين أخذنا نعلِّم الفلسفة في المعاهد الثانوية والجامعات، ازداد عدد المؤلفات والمقالات الفلسفية حتى غمرت المطابع والصحف الأسبوعية والمجلات الشهرية». وقد أسهم جميل صليبا في هذا المضمار إسهامًا كبيرًا.

وسبق له أن تقدم في عام ١٩٢٦ إلى جامعة باريس ببحث باللغة الفرنسية للحصول على درجة الدكتوراه، وكان موضوعه: «دراسة في ميتافيزيقية ابن سينا». والعنوان وحده كافٍ في الدلالة على دقة البحث وعمقه، والبحوث الميتافيزيقية كانت ولا تزال من أعمق الدراسات الفلسفية. وهو على كل حال معالجة جادة لأول مرة لجانب من جوانب فلسفة ابن سينا، ألمَّ فيها بموضوعه إلمامًا مستوعبًا. وجاء دون نزاع باكورة من بواكيرنا المعاصرة في دراسة الفكر الفلسفي الإسلامي باللغة الفرنسية. ولم يسبقه إلا رسالة أخرى باللغة نفسها قدمها طه حسين عام

١٩١٧ للحصول على الدكتوراه أيضًا من جامعة باريس، وكان موضوعها: «دراسة نقدية وتحليلية لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية». ولا تزال رسالة جميل صليبا مرجعًا يشار إليه في موضوعه.

ثم توالى درسه وبحثه، فلم يقم مهرجان فلسفي، ولم تجئ ذكرى لفيلسوف عربي إلا وكان لجميل صليبا فيهما قول وإسهام. ففي عام ١٩٥٢ أقيم ببغداد مهرجان للذكرى الألفية لابن سينا، وكان لفقيدنا فيه بحث قيّم حول: «نظرية الخير عند ابن سينا». وفي عام ١٩٦٢ نظمت هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت ندوة حول: «الفكر الفلسفي في مئة سنة». فأمدّها جميل صليبا ببحث موضوعه: «الإنتاج الفلسفي: الفلسفة عمومًا وفلسفة العلوم». وفيه نقد وتحليل وتصوير واضح للتيارات الفلسفية في العالم العربي إبان المدة المحدث عنها. وله بحوث أخرى في الصحف والمجلات لا يتسع الزمن للحديث عنها.

ولم يقف جميل صليبا عند البحث والتأليف، بل عني أيضًا بالترجمة والتحقيق، فترجم **كتاب المقال** لديكارت، على غرار ما صنع معاصر له بالقاهرة هو المرحوم محمود الخضيري. ونشر مع زميله الدكتور كامل عياد أطال الله بقاءه **كتاب المنقذ من الضلال** للغزالي. وأخرج لنا تلك التحفة النادرة المعزوّة إلى إخوان الصفا في جزأين، وهي **الرسالة الجامعة**.

وإذا كان باحثنا قد عني خاصة بالدراسات المتخصصة فإنه لم يفته أن ييسر الأمر على أبناء المدارس الثانوية، فأخرج لهم عام ١٩٧٠ كتاب الفلسفة العربية، وهو من آخر مؤلفاته، وقد لاءم بينه وبين المنهج اللبناني، وفيه نفع لطلاب الفلسفة

بوجه عام. روى فيه ما وسعه، وسلك فيه مسلكًا واضحًا، يعرف بالمفكر أو الفيلسوف أولًا، ثم يعرض آراءه في بسط وتفصيل، ويحرص على أن يقدم مختارات من عباراته وأقواله. وهذا الكتاب ولا شك من أغزر الكتب المدرسية وأنفعها.

وشغل فقيدنا منذ زمن بالمصطلح الفلسفي، لأنه لمس «أن المصطلحات الفلسفية المترجمة عن اللغات الأجنبية لا تخلو من اللبس والغموض، وكل مؤلف يختار من الاصطلاحات ما يرضيه، حتى إنك لتجد للمعنى الواحد عند بعض المؤلفين ألفاظًا مختلفة، أو تجد للفظ الواحد عدة معان». وقد أخذ نفسه بمواجهة هذا النقص، وقدم في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سلسلة متصلة من الدراسات حول المصطلح الفلسفي في ماضيه وحاضره. وشاء أخيرًا عام ١٩٧١ أن يجمع ذلك في معجم فلسفي ضخم يقع في جزأين وفي نحو ١٥٠٠ صفحة، ويشتمل على ما يزيد على ١٠٠٠ مصطلح، جمع في كل واحد منها بين العربية والفرنسية والإنجليزية، وشرحها شرحًا مقبولًا في جملته. وهو أميل إلى الدراسات الموسوعية منه إلى قوائم المصطلحات المختصرة.

ذلكم هو جميل صليبا الباحث والفيلسوف. درّس وعلّم، بحث وأنتج في مرحلة كان فيها البحث الفلسفي في بدايته. فغذاه بغذاء كامل: دعا إلى نشر النصوص القديمة، لأنها الأساس الذي يبنى عليه كل درس أو بحث. وقال بترجمة الأمّهات عن الثقافات الأخرى، وإذا كنا قد عنينا بالنشر والتحقيق في الثلاثين سنة الماضية فإننا لم نعنَ العناية الكافية بالترجمة. وأخذ جميل صليبا نفسه بالبحث والتأليف، وسلك فيه مسلكًا واضحًا يربط الجديد بالقديم، ويرد الأشياء إلى أصولها

ويدلي بأحكام لا غلو فيها ولا تفريط. ومنح المصطلح الفلسفي عناية كبيرة، وحياة كل دراسة في أن تسلم لغتها من الخلط واللبس. واستحق بهذا كله أن يكون رائدًا من رواد الفكر الفلسفي العربي المعاصر.

* * *

كلمة الأستاذ حافظ الجمالي

رئيس اتحاد الكتّاب العرب

في ذكرى الدكتور صليبا

في كل يوم، نوفد إلى المقابر مجموعة من أعزائنا وأصدقائنا، ومن هؤلاء الناس الذين نعرفهم أو لا نعرفهم. ولكن حتى إذا كنا نجهل أشخاص الميتين، فإنه لا بد من إراقة دمعة صغيرة على ذكراهم، كتحية أخيرة نودعهم بها. ذلك أن كل فقيد، مهما يكن، هو جزء منّا، عصفت به المنون فذهبت به، وثروة أتى عليها الدهر فأضعناها، ووجود كان يشد أزرنا، ويشاركنا في السرّاء والضرّاء، فأفقرنا بفقده. وهل هي مجرد كلمة بسيطة، أن نقول: إن أحد المواطنين قد مات؟

غير أن الناس الذين نقيم لهم حفلات تأبين ليسوا إلا أقلية من هؤلاء. ولا شك أن للوضع الاجتماعي والأهمية الشخصية، والمناصب، والمواقع التي يحتلها بعض الناس في الهرم الاجتماعي، علاقة وثيقة بحفلات التأبين، والاحتفالات التي ترافقها. إلا أن هذه كلها قيم خارجية تضاف إلى شخصية المؤبّن إضافة، وتطرح عليه من الخارج طرحًا.

أما الذي نؤبنه اليوم، فإننا نؤبّنه لغير منصب رفيع يحتله، أو مركز عظيم يقوم عليه. ذلك أن كل المراكز التي شغلها كانت دونه، وكان هو فوقها. وما أكثر من يكون مركزه كل شخصه. وبتعبير آخر إننا نؤبّنه لقيم ذاتية له، لاصقة بوجوده، لا

مستعارة من خارج، ولا مضفاة من الآخرين. ولئن كنا نؤبن الدكتور صليبا، اليوم، فلأننا نشعر بالتأكيد أن مواهبه وعلمه وجهده، كانت لنا أكثر مما كانت له، وأنه وقفها علينا، ولم يقفها على نفسه. فكأنما نحتفل اليوم بذكرى من كانت حياته كلها ثروة من ثرواتنا، وعطاءً متصلًا لنا، بتضحيات منه لا تنقطع، ونهمٍ منا لا يشبع. ولهذا يمكن القول إن احتفالنا بالدكتور صليبا، إنما هو تحية جماعية أخيرة نزجيها إلى روحه.

وكثيرون هم الأموات في كل يوم. ولكن مِن الأموات، مَن نشعر نحن، وتشعر الأجيال بعدنا، أنه يظل دائم الحياة بينها، وصحيح أن ابن خلدون وابن رشد والفارابي وابن سينا، قد ماتوا، ولكننا نذكر في كل يوم أسماءهم، والمأثور من أقوالهم، ونقرأ كتبهم. فلئن ودعنا الدكتور صليبا، اليوم، فلكي نزفه إلى هذا العالم الجديد، عالم الذين لا يموتون، إلا في أضيق ما لديهم.

ولقد عرفتُ الدكتور صليبا قبل أن أعرفه. فكلُّ مَن كان يمضي إلى دمشق، لمتابعة دراسته الثانوية كان يأتينا ويتحدث إلينا عنه، حديثًا مفعمًا بالتقدير والإجلال والمهابة. ولكثرة ما سمعت من هذا النوع أصبحت آنئذٍ وكأنني أعرف الرجل. ولما جاء دوري في أن أكون من طلابه، لم يخل الأمر من مفاجأة جديدة. فكل ما كنت قد سمعته عنه، لم يكن أكثر منه، بل كان أقل منه. وكانت سعادتي كبيرة في أن أعرف الرجل، وأن أكون له تلميذًا.

ترى من هو هذا الأستاذ العظيم إذن وما هي مزاياه كمعلم؟ من الصعب ولا ريب أن نحيط بصفات أي إنسان إحاطة كاملة. ومن الصعب أن تصوِّر الكلمات

الجامدة حياةً مفردة بكل ما لها من صفات وخصائص، ولكن لا أزال أذكر تلك اللغة العربية الصافية التي يصوغ بها دروسه وكتبه، وذلك الصوت العذب الرخيم الهادئ الرصين، الذي يلزم الإنسان بالانتباه إلزامًا، ويقسره عليه قسرًا، ويملك عليه كل لبّه وقلبه، فإذا تركت الصوت إلى الموضوع، وجدته يتسلسل نقطة بعد نقطة، وفكرة بعد فكرة، لينتهي إلى كل شامل تعرف أوله وآخره، وبدايته ونهايته، في بنية موحدة، ذات هندسة مكتملة لا ينقصها شيء، ويشعر الطالب عندئذ أنه يتمثل شيئا ثمينًا، ويطلع على أشياء جديدة ويقف أمام تساؤلات عميقة، تهز كيانه هزًّا، وتحمله على تفكير متصل، يتمنى معه دومًا أن يعود الأستاذ فيجيب، أو لعله يجيب عما انقطع من سيل التساؤلات، ويروي الغليل الملتهب. ولكن الأمور كانت تتتابع على سيرتها الأولى، وتنضاف الأسئلة، وتتجمع الحيرة فوق الحيرة، وينتهي الإنسان أخيرًا إلى الشعور بأن هناك آفاقًا عميقة، عميقة، بعيدة، لا يستطيع إلا أن يتحرق شوقًا إلى معرفة ما فيها، أو ما وراءها. وبتعبير آخر: إن أول وأهم ما يكسبه الطالب من هذا الأستاذ هو الشعور بمسافة فاصلة، كلما أحس بأنها صغرت من تحت علت من فوق، أو قُلْ هو الشعور بفارق مستوى، لا يظن صاحبه أنه هبط قليلًا من أدنى، إلا ليرتفع مباشرة من أعلى. وهكذا يرقى الإنسان ويرقى معه مستوى طموحه، حتى لكأنه، على اغتنائه المتزايد، يظل على مسافة واحدة من الهدف الذي يسعى إليه.

وهنا السر الكبير في الأستاذ الكبير الذي نتحدث عنه: إنه يشعرك دومًا أنه يغنيك، ولكنه لا يغنيك إلا ليفقرك من جديد، فأنت أمام رجل تتمنى أن تعرف منه كل ما عنده، ويملؤك شوقًا إلى متابعة البحث والاغتناء، ويشعرك دومًا أنه قريب منك على

بعد، وبعيد على قرب. والمهم في ذلك كله أنه يوقظ نفسك من الغفلة، وتفكيرك من التقليد، وكيانك من الجمود. فكأن كل درس هو فتيلة لشعلة جديدة، لا ترى إلا أنها متصاعدة اللهيب، تصاعدًا متصلًا، وإلا أنك محمول على الصعود معها وإصعادها أيضًا. فكأن انقلابًا نفسيًّا، من نوع حاد، ينشأ في الطالب من الاتصال بمثل هذا الأستاذ تحسّ معه أنّك اليوم غير ما كنت بالأمس. ويقينًا لقد أصبحت بعده، غيري قبله. ولئن كانت دروسه تخلو من كل توجيه عقائدي مباشر، فلا ريب أن أي مستوى عادي من الذكاء، متفتح للإصغاء إلى أقوال المعلم، يستطيع أن يتلمس كل صور المعاصرة، وما فيها من تقدمية رصينة جادة، لا هزل فيها ولا طيش، ما أشعر أن لدينا الآن مما هو سائد، يزيد عليها قوة أو جمالًا. حقًّا إن هذا الأستاذ هو من أوائل من نقلوا أجيالنا الجديدة من عالم التقليد والجمود، إلى عالم المعاصرة. إن قفزة عقلية من عدة قرون حضارية، هي التي تحققت على يد هذا المعلم الكبير.

ذلك هو سر الأستاذ الكبير: إنه في هذا الإيقاظ المتصل، في الشد إلى ما فوق، في نزع هذا اليقين الخامل، الذي كنت تحسب معه أنك تعرف كل شيء، فإذا بك على يقين آخر، مختلف جدًّا، هو أنك لم تؤت من العلم إلا قليلًا، ولكن في وسعك أيضًا أن تزيد نفسك علمًا، وتغني عقلك بالمعرفة، ولكن على شرط واحد: هو أن تظل شاعرًا بالقصور، وأن الشوط أمامك بعيد، وأن عليك متابعة المسيرة، وأن الشيء الذي ينبغي أن تعتمده في هذه المرحلة المرهقة، ليس شيئًا آخر إلا كل وجودك، عقلًا بالدرجة الأولى، ولكن عاطفة وإرادة أيضًا، مع تغليب دائم للعقل أولًا وأخيرًا، وجعل العواطف والإرادة روافد تحفز العقل على المزيد من التأمل والتفكير.

كانت مفاجأتي بهذا الأستاذ كبيرة، فاقت ما كنت أسمعه عنه. وفي ذات يوم خطر ببالي أن أزوره زيارة شخصية، لعلني أرى له صورة شخصه العادي، شخص من يأكل ويشرب، ويتعب ويستريح ويدرس، كأستاذ حوله تلاميذ أحيانًا، ويخاطب محدثيه كالند للند أحيانًا أخرى. واخترعت لذلك حيلة وذهبت لزيارته. ولكني ظللت أشعر أن الرجل هو هو، قريب على بعد، بعيد على قرب، فكأنه دومًا هو الأستاذ المحبّب، المثير للإعجاب، الذي تتمنى أن تصبح مثله.

وزاملته بعد ذلك، في الوزارة، وفي كلية التربية. وكان عملنا مشتركًا وهو رئيسه. ولأعترف الآن أن هنالك علاقتين مقدستين في هذه الدنيا: علاقة الابن بأبيه، وعلاقة التلميذ بأستاذه. وما من مرة استطعت أن أتخلى مع الدكتور صليبا، عن هذا الشعور الحلو الرائع: إنه دومًا هو الأستاذ، وأنا دومًا التلميذ أو الطالب. ويقينًا قلما رأيت إنسانًا أرعى لهذه العلاقة، وأحرص عليها، وأجدر بها، من هذا الأستاذ المحبب الرائع.

ومنذ كنت تلميذًا له، كنت ألاحظ وقاره، ينساب من شخصه انسيابًا طبيعيًّا جدًّا، حتى لكأنه جزء منه، غير متصنع ولا متكلف. وما من يوم سمعته يتحدث مع أي إنسان بكلمة نابية أو قاسية.

ولقد اضطررت ذات يوم إلى سؤاله عن شخص عرفت من قبل أنه كان رفيقه في الدراسة. وشاءت الظروف أن يصبح في مقام عالٍ، يستطيع معه التصرف بأمورنا وتدريسنا وكليتنا. فقلت له: هل أستطيع أن أعرف ما رأيك في هذا الرجل: أغبي هو أم ذكي؟ وأجابني مباشرة بحديث مستفيض عن كرمه. ولكني استدركت

وقلت: إني أسأل: هل هو غبي أم ذكي، ولا أسأل عن بخله أو كرمه؟ ولكن الأستاذ ظل يقول: إنه كان كريمًا جدًّا. رحم الله أستاذنا، لقد كان دافئ اللسان إلى أبعد الحدود.

ولعل الإنسان يتساءل أخيرًا: ما هي القيمة الكبرى التي كان هذا الأستاذ الفاضل يُؤْثرها على كل ما عداها من القيم، ويرهن لها حياته، ويبثها في كل دروسه؟ ولا شك أني لم أؤت علم الغيب. ولكن كل الظواهر تدل على أن «الحقيقة الموضوعية» أو الحقيقة على وجه الإطلاق هي التي كانت قيمته المفضلة. غير أن هنالك ما يدعوني إلى الظن أنه كان من القائلين بوحدة القيم، فكأن الحقيقة ليست حقيقة فحسب، بل هي الخير والجمال أيضًا. وحقًّا فلقد كانت حياة الرجل كلها خدمة متصلة لإحياء التراث الفلسفي العربي، ونشر نصوصه، وضبط مصطلحاته، بمقدار ما كانت تفكيرًا دائبًا لتكوين تربية جديدة للأجيال الناشئة تحبب إليهم الحقيقة أولًا، ثم الخير والجمال بالضرورة.

إن رجلًا تهيأ للخدمة العامة خلال خمس وعشرين سنة، وقضى بعدها خمسين سنة، ليس لحياته الشخصية منها إلا الحد الأدنى لهو إنسان جدير بأن نحني الرأس له احترامًا، ونقدم له كل صور العرفان بالجميل.

* * *

كلمة السيد الاستاذ الدكتور كامل عيّاد

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

سيداتي، سادتي!

ما أشق أن أقف هذا الموقف لتأبين فقيد عزيز وزميل كريم! بل ما أقسى أن أتحدث، وقلبي يتفطر حزنًا وغمًّا، لأرثي صديقًا حميمًا. لم تكن صداقتنا من قبيل ما ألفه الناس، ولكنها كانت من طراز خاص قلما تسمح الأيام بمثله. لا أتذكر بالضبط متى وأين التقيت لأول مرة بالمرحوم الأخ جميل صليبا، ولكنني أعلم حق العلم أننا شعرنا منذ أول يوم اجتمعنا فيه خلال سنة ١٩٣٠، كأننا كنا نعرف أحدنا الآخر دومًا. وبقينا كذلك مدة ستة وأربعين عامًا تربطنا صداقة خالصة وأخوة صافية: لا اختلافات بيننا ولا منازعات، بل وُدّ متبادل وصلات وثيقة وتعاون صادق وتفاهم تام. كانت تؤلف بيننا وحدة الآراء والأفكار والأهداف. وكنا نعمل معًا في مدرسة التجهيز ودار المعلمين وفي لجنة التربية والتعليم ثم في الجامعة وفي المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وفي مجمع اللغة العربية. وقد اشتركنا منذ سنة ١٩٣١ في إصدار مجلة المعلمين والمعلمات، وبعدها مجلة الثقافة (بالاشتراك مع الأستاذ خليل مردم بك والدكتور كاظم الداغستاني)، ثم مجلة كلية التربية، واشتركنا في نشر كتاب (**المنقذ من الضلال**) للغزالي، وكتاب (**حي بن يقظان**) لابن طفيل، وكتاب (**منتخبات من ابن خلدون**)، كما اشتركنا في تأليف كتاب (**المنطق وطرائق العلم العامة**)، وفي ترجمة كتاب (**الرأي العام**) لآنغريد سوفي...

في هذه السنين الطويلة والأحوال المتقلبة والأعمال المشتركة ما عرفت الدكتور جميل صليبا إلا إنسانًا فاضلًا، صادقًا، وفيًّا، عفَّ اللسان، رضي الخلق، طيب المعشر. لا أذكر أنني رأيته يومًا غاضبًا أو حاقدًا على أحد. ولكنه كان دومًا محبًّا للجميع يريد الخير لكل الناس..

وهب الدكتور جميل صليبا نفسه للعلم فأخلص له وتفانى في تحصيله ونشره، وقضى حياته وهو يبحث ويحقق ويؤلف ويعلِّم. لقد كان عَلَمًا من أعلام النهضة العلمية في سورية وفي سائر أنحاء الوطن العربي، ورائدًا من رواد الفكر، وداعية إلى التجديد والتقدم. وكان يؤمن بأنه لا سبيل إلى الإصلاح إلا عن طريق البحث العلمي.

إن مؤلفات الدكتور جميل صليبا الكثيرة تبرهن على أنه كان عالِـمًا تتجلى فيه صفات العالم بكل ما في الكلمة من معنى. فقد امتاز بغزارة المعلومات وسعة الثقافة وبالنظرة الموضوعية – الشاملة وبالإحاطة في استقراء الوقائع وبالدقة في البحث والأمانة في العمل والصدق في التحري وبعمق التفكير والإيمان بالقيم السامية. كذلك كان يتحلى بالصبر والأناة والمثابرة لا ينقطع عن الدراسة والمطالعة والمراجعة والكتابة، ساعيًا دومًا وراء المعرفة، متمسكًا بروح العدل والإنصاف، طالبًا الكمال...

هذا كتابه في (**علم النفس**) الذي نشره سنة (١٩٣٦) كان أنموذجًا في غنى مادته وحسن تبويبه وجمال أسلوبه جمع فيه خلاصة التجارب والأبحاث والنظريات في علم النفس التي كانت سائدة في فترة الثلاثينيات. وكان هدفه الأول من تأليف

هذا الكتاب تعويد الطلاب النظر المجرد والتأمل الشخصي وحرية البحث والتفكير والثقة بالعقل ومحبة الحكمة.

وقد نهل من معينه أجيال متعاقبة من الطلاب والشباب في سورية وغيرها من البلاد العربية، فاكتسبوا بذلك ثقافة علمية وفلسفية تركت آثارًا عميقة في نهضتنا الحديثة.

ولست في حاجة هنا إلى استعراض مؤلفاته القيمة الأخرى مثل: كتاب **المنطق**، أو كتاب من **أفلاطون إلى الفارابي**، أو **من الخيال إلى الحقيقة**، أو **الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث**، أو **اتجاهات النقد الحديث في سورية**، أو **مستقبل التربية في العالم العربي**، أو **تاريخ الفلسفة العربية**، أو ترجمته الرائعة لكتاب ديكارت **مقالة الطريقة** الذي نشرته منظمة اليونسكو. إنما سأقتصر في حديثي الآن على نشاطه في مجمع اللغة العربية. فقد ظل الدكتور جميل صليبا منذ انتخابه في سنة ١٩٤٢ عضوًا عاملًا في المجمع العلمي العربي (الذي بدّل اسمه في زمن الوحدة مع مصر إلى مجمع اللغة العربية) - ظل يبذل جهدًا صادقًا في سبيل تحقيق أهداف المجمع وفي مقدمتها إحياء التراث العربي ووضع المصطلحات العلمية التي تحتاجها اللغة العربية لتستطيع الوفاء بمتطلبات العصر. إنه كان يحضر جلسات المجمع بانتظام ويشترك في مناقشاته ويعمل في اللجان المختلفة.

وقد نال تقدير زملائه الذين أعجبوا برجاحة عقله وسداد آرائه ورزانته وسمو أخلاقه وإخلاصه في خدمة اللغة العربية والدفاع عن مميزاتها. وهذه مجلة المجمع التي تعكس نشاطه وجهوده يكاد لا يخلو جزء من أجزائها من مقال أو تعليق له...

وقد نشر ضمن مطبوعات المجمع كتابين من كتب التراث حققهما وقدم لهما هما: ١) **الرسالة الجامعة** للرياضي والفلكي الأندلسي (أبي القاسم المجريطي) الذي كان أول باحث أدخل تعاليم (إخوان الصفا) وآراءهم إلى الأندلس؛ ٢) كتاب **الحيدة** للإمام عبد العزيز الكناني الذي عاش في عصر المأمون. وهو يبحث في مسألة (خلق القرآن) التي احتدم الجدال حولها في ذلك العهد بين المعتزلة من علماء الكلام وبين الفقهاء والمحدِّثين.

وظهرت له مقالات عديدة في مجلة المجمع جمعها من بعد في جزأين من كتابه **الدراسات الفلسفية**. وموضوعات هذه الدراسات هي: (الغزالي وزعماء الفلسفة)، (حدود العقل عند الغزالي)، (أبو الهذيل العلاف)، (الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية)، (معاني العقل في الفلسفة العربية)، (معاني الحدس والفكر)، (نظرية الكندي في المعرفة)، (نظرية الخير عند ابن سينا)، (المدينة العادلة في نظر ابن سينا)، (موقفنا من الفلسفة)...

كذلك نشر في مجلة المجمع، على مر السنين، عددا ضخمًا من المصطلحات الفلسفية التي تكوّن منها أخيرًا كتابه **المعجم الفلسفي** في جزأين كبيرين.

قبل أن أتكلم على هذا الإنتاج الفلسفي الخصب لا بد لي من الإشارة إلى أن الأطروحة التي تقدم بها المرحوم جميل صليبا إلى جامعة الصوربون لنيل شهادة الدكتوراه في سنة ١٩٢٦ كان موضوعها (دراسة عن فلسفة ابن سينا فيما بعد الطبيعة.)

إن دراسات الدكتور جميل صليبا التي ذكرناها تدور حول تاريخ الفلسفة

العربية، ذلك لأنه أراد أن يسهم في إحياء تراثنا الفكري الذي يمكن أن نتخذه أساسًا لبناء فلسفة عربية جديدة مقتبسة من تراثنا القديم ومن منجزات الفلسفة الغربية الحديثة. وقد أسهم الدكتور جميل صيبا نفسه في وضع هذا الأساس وإرساء قواعده، وذلك من جهة بتعريبه كتاب (مقالة الطريقة) لديكارت وترجمته بعض مؤلفات (برغسون) وكتابة مقالات عن فلسفته، ومن جهة ثانية بجهوده في نشر وتحقيق وشرح العديد من كتب التراث الفكري العربي الإسلامي.

إن موضوع إحياء تراثنا الفلسفي يستحق أن نقف عنده ونوليه كثيرًا من اهتمامنا. أذكر أننا كنا مع بعض الزملاء في التعليم الثانوي والدكتور جميل نعقد الحلقات للمذاكرة والمسامرة ومناقشة الكتب.

وقد طلب مرة أحد الزملاء من أساتذة اللغة العربية أن نتدارس بعض الكتب الفلسفية قائلًا إنه حاول قراءة واحد منها ولكنه لم يستطع أن يفهم شيئًا. ولا غرابة في ذلك لأن الفلسفة، كما لكل علم من العلوم، لغة فنية خاصة تعتمد على مصطلحات متفق عليها. فلا بد، إذن، من أن تبدأ الدراسة بتعلُّم هذه المصطلحات. ويزداد الأمر صعوبة عندما نرجع إلى كتب تراثنا الفلسفي القديم ونحاول مطالعتها. فإن أكثر مصطلحاتها تختلف عن المصطلحات الحديثة المتداولة، كما أن موضوعاتها تبدو، لأول وهلة، كأنها لا تتفق والاتجاهات الفكرية الحاضرة، فلا بد إذن من شرحها وتفسيرها.

وهنا لا بد من الاعتراف بفضل الدكتور جميل صليبا وأهمية كتابيه: **المعجم الفلسفي، والدراسات الفلسفية.**

بدأ الدكتور جميل صليبا منذ خمسين عامًا ينقب عن المصطلحات الفلسفية ويدرس مداولاتها. ولما أصدر الطبعة الأولى من كتابه (علم النفس) ألحق به فهرسًا للألفاظ الفلسفية يشتمل على (٣٦٠) مصطلحًا.

ثم استمر في التنقيب عن هذه المصطلحات وأقدم بنفسه على وضع طائفة منها عن طريق التعريب أو النحت أو الاشتقاق. وقد وجه كل عنايته إلى إحياء المصطلحات العربية التي كان يفتش عنها في المعاجم القديمة الخاصة مثل (تعريفات) الجرجاني و(كليات) أبي البقاء و(كشاف مصطلح الفنون) للتهانوي. كما كان يبحث عن هذه المصطلحات ومدلولاتها في مؤلفات الفلاسفة العرب والمفكرين المسلمين. وقد تمكن من أن يجمع في معجمه ما يقارب (٢٨٠٠) مصطلحًا.

يمتاز معجم الدكتور صليبا على المعاجم القليلة الموجودة بين أيدي الناس ليس بهذا العدد الكبير من المصطلحات فحسب، بل قبل كل شيء بطريقة تعريف المصطلح؛ إذ يتوسع في شرح كل لفظ فيرجع إلى أصله في اللغة ويثبت إلى جانبه ما يقابله من الألفاظ بالفرنسية والإنكليزية واللاتينية ثم يستعرض المعاني الخاصة التي يدل عليها في الفلسفة القديمة وفي مختلف المذاهب من الفلسفة الحديثة، كما يورد نصوصًا فلسفية تبين وجوه استعماله.

وبما أن مصطلحات مثل (الجدل) أو (الوجود) أو (السبب) أو (الديموقراطية) أو (الاشتراكية) تختلف معانيها عند الفلاسفة القدماء والحديثين، بل عند كل واحد من الكتّاب وأصحاب المذاهب كان لا بد للدكتور جميل صليبا من أن يخصص صفحات عديدة لتفسير كل مصطلح وبيان معانيه المختلفة. ولذلك جاء كتابه أقرب إلى الموسوعات الفلسفية منه إلى مجرد معجم ألفاظ.

وقد تقيد الدكتور جميل صليبا، على وجه العموم، بالتفسير الموضوعي لكل مصطلح، شأنه في ذلك شأن العلماء الحياديين. إلا إنه اضطر أحيانًا إلى إبداء بعض الآراء والتفسيرات الذاتية المتفقة مع وجهة نظره الخاصة في بعض القضايا الفلسفية الكونية أو المشاكل البشرية الجوهرية التي يصعب إصدار أحكام نهائية ومطلقة فيها.

وإذا كان موضوع المصطلحات الفلسفية مازال يحتاج إلى مزيد من البحث والاجتهاد وإعادة النظر دومًا، فلا شك في أن معجم الدكتور جميل صليبا يعتبر إنجازًا قيمًا وخطوة هامة في سبيل وضع المصطلحات العلمية التي تحتاج إليها اللغة العربية في الوقت الحاضر، كما أنه سوف يساعد الدارسين والباحثين كثيرًا على متابعة جهودهم.

أما كتاب (الدراسات الفلسفية) للدكتور جميل صليبا مع سائر النصوص القديمة من التراث التي حققها ونشرها، فإن أهميتها تبرز من ناحيتين: أولًا لأنها وثائق تاريخية لها قيمة ذاتية تشهد على مدى تقدم أجدادنا في الحضارة، وثانيًا: لأننا بالرجوع إلى هذه الأصول والمصادر نستطيع أن ندرس الفكر العربي – الإسلامي دراسة واقعية فنعرفه على حقيقته ونميز العناصر الأجنبية التي تأثر بها عن مقوماته الأصلية التي ولدتها البيئة والظروف التاريخية، ثم نستطيع أن نتتبع أدوار تطوره منذ نشأته ونموه حتى كماله ونضجه، وننتهي إلى بيان مدى تأثيره في العصور التالية حتى الوقت الحاضر.

وقد حاول الدكتور جميل صليبا أن يكشف عن بعض الصفات المميزة للفلسفة العربية مثل الصفة العقلية والروحية والتوحيدية والتوفيقية، كما بحث في تفرعات

هذه الأقسام مثل النزعة الطبيعية أو الإشراقية أو الصوفية أو الوضعية، واستخلص من ذلك أن هذه الفلسفة متعددة العناصر، متشابكة الأصول والفروع، كثيرة الغايات والمقاصد. وهي وإن كانت متشحة برداء اليونانيين، فإن هذا الرداء لا يخفي ملامحها الخاصة. وقد تركت هذه الفلسفة أثرًا بليغًا في تاريخ الحضارة لما بذله أصحابها من جهود عظيمة في سبيل تحقيق المثل العليا الإنسانية.

كان الدكتور جميل صليبا يعتقد بأن هناك «تشابهًا عظيمًا بين الحياة الفكرية القديمة والحياة الفكرية الحديثة لأن المحْدثين مازالوا حتى الآن يتبعون في تفكيرهم بعض الأساليب التي ورثوها عن أجدادهم، ولأن لمنازعنا الفكرية الحاضرة جذورًا تاريخية توضح نشوءها وتطورها واتجاهاتها...»

وقد كانت غايته من نشر (الدراسات الفلسفية) أن تصبح حافزًا إلى البحث في تاريخ الفلسفة العربية وإحياء تراثنا الفكري. وكان يأمل أن يؤدي ذلك إلى إيقاظ وعينا الفلسفي وتوضيح منازعنا الفكرية وتثبت مصطلحاتنا وأخيرًا التمهيد لإنتاجنا المبتكر.

في سنة ١٩٦٢ دعت الجامعة الأمريكية في بيروت إلى حلقة دراسية لاستعراض ما أسهم به المؤلفون العرب في دراسة الفكر الفلسفي خلال المئة سنة الأخيرة. وقد اشترك الدكتور جميل صليبا ببحث تكلم فيه على الاتجاهات العامة في إنتاجنا الفلسفي مثل الاتجاه المادي والعقلي والروحي والوجودي والشخصاني والعلمي، وذكر أسماء بعض المفكرين الذين يمثلون هذه الاتجاهات ولخص آراءهم، كما أشار إلى أن هذه الاتجاهات تعتمد على الاقتباس سواء من الفلسفة الغربية أو من تراثنا

القديم، ثم بيَّن أن الكتب التي ألفها علماؤنا في الأيام الأخيرة تنم عن تقدم ثقافتنا العلمية الحديثة، ولكنه رأى أن ليس بين هؤلاء الباحثين إلا القلائل الذين حاولوا الابتكار. وإنّ أكثرهم قد اقتصروا على معالجة مسائل جزئية أو وقفوا عند بعض التأملات والخواطر دون أن يتوصلوا إلى بناء مذهب فلسفي كامل. وهو يقول في سبيل تعليل ذلك «أنه ربما كان ناشئًا عن طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه، فهو لم يهيئ لنا بعد أسباب التخصص والتعمق ولم يعودنا التفرغ للبحث العلمي الهادئ الرصين، وأكثر أساتذة جامعاتنا مصروفون عن الإنتاج المبتكر إلى التأليف المدرسي ومدفوعون عن الحياة التأملية إلى الحياة العملية يكسبون فيها رزقهم، ولم يتوافر لهم جميعًا ما توافر لعلماء الغرب من طمأنينة فكرية وضمان اجتماعي».

إلا أن الدكتور جميل صليبا كان، على الرغم من ذلك، متفائلًا بالمستقبل، يؤمن بأن العقل العربي قادر على الإبداع واستجلاء حقائق الوجود وعلى التجريد والسمو والتعالي. وكان يرى بأنه لا بد لبلوغ هذا الهدف من الاقتباس من معين تراثنا القديم تارة ومعين الفلسفة الغربية تارة أخرى، ثم يقول: «من واجبنا أن ننقل أمهات المذاهب الغربية إلى لغتنا لدراستها وشرحها، كما ينبغي في الوقت ذاته إحياء تراثنا الفلسفي القديم ودراسته على ضوء النقد الحديث. وبذلك يمكن وضع أساس راسخ وانتهاج سبيل واضح لبناء فلسفة عربية أصلية تعبر عن منازعنا العقلية وحاجاتنا الفكرية أحسن تعبير».

سيداتي، سادتي!

تلك هي لمحات خاطفة عن الصديق العزيز المرحوم الدكتور جميل صليبا وإشارات وجيزة إلى أعماله في مجمع اللغة العربية وإلى أبحاثه الفلسفية. وأنا أشعر

بالحرج والأسى لتقصيري في الوفاء، ولو بجزء ضئيل، من حقه علي، ولكن أنى لي الإحاطة بالجوانب المتعددة لهذه الشخصية الفذة والإشادة بمزاياها النادرة ومآثرها الحميدة.

وحسبي أن أنوه بفضله على الآلاف والآلاف من الطلاب والقراء الذين ظلوا مدة نصف قرن يأخذون عنه العلم ويقتبسون الثقافة والذين أصبحوا مدرسين وعاملين في مختلف الميادين. إن ذكراه ستظل حية لدى هؤلاء التلاميذ وعند أصدقائه وزملائه الكثيرين الذين عرفوه جميعًا سبَّاقًا إلى المعرفة، عالِـمًا محققًا ومفكرًا مبدعًا ومربيًا بارعًا وكاتبًا نقادًا وعاملًا مصلحًا وإنسانًا فاضلًا يمتاز برجاحة العقل وسماحة الطبع وسمو الخلق، إنهم جميعًا سوف ينهلون من مؤلفاته ويقتبسون من أفكاره ويتبعون آثاره. إن فقدان هذا الرائد خسارة وطنية كبيرة وعزاؤنا الوحيد هو أنه سوف يبقى منارة للناشئين يحتذونه في شغفه بالعلم وحبه للحكمة ويسلكون طريقه في البحث والإنتاج ويسيرون على هديه في خدمة الشعب والدعوة إلى الإصلاح والتجديد والتقدم والسلام.

* * *

قصيدة للأستاذ أحمد الجندي

الأستاذ الراحل المرحوم الدكتور جميل صليبا

لا تسلني وقد تقضـــى شبابي أين سار اللـدات مـن أصـحابي
ذهبـوا كلهـم كـأحلام ليـل وتولـوا كلمحـة مـن سراب
وتنـــاءوا كـــأنهم ذكريـــات شاحبات تلوح خلف ضباب
جثم الموت فوقهم فاستراحوا بعـد طـول الضـنى وطـول
فلهـم أن أزورهـم بـدموعي ووفـائي وذكريـاتي العـذاب

* * *

يـا زمـان الأسـى أتسـمع قـولي أم تـرى أنـت معـرض عـن
قـد جرينـا مـع الرفـاق سـويًّا مثـل سرب القطـا نطـوف
وقطعنـا عهـد الشـباب وكنـا زهـرات تضـوع بالأطيـاب
كلنـا يـدرك المـآل وكـل عـالم بالـذي وراء الشـعاب
والتفتنـا فكـل تـرب بعيـد عـن أخيـه وكـل إلـف نـاب
وإذا بي، وحـدي، أفـتش عـن صحبي غريبًا في معشر أغراب
والأحبـاء نـائمون سـكارى في مهـاد مـن جنـدل وتـراب
فـإذا مـا بكيـت فاعـذر محبًّـا راح يبكي على ثرى الأحباب
وافتقـاد الصـديق غصـة حـزن لا تداوى بجرعة من شراب

* * *

إيـه أسـتاذنا الـذي علـم الـ ـجيـل وروّاه خـير كـل كتـاب
الـذي خـرّج الفلاسـفة الفتـ ـتيان يُسـقون صـافي الآداب
الـذي قـدّم الحقيقـة كالشـ ـشهد مـذاقًا يـداف بـالأكواب
وأتانا مثل ابـن رشـد رصـينا رائـع الفكـر مولعًـا باللبـاب
في دروس قد لاح سقراط فيها وابـن سـينا الـرئيس والفـارابي
وعليهـا مـر الغـزالي يومًـا ورعاها الكندي رعي اصطحاب
وتراءى حي بـن يقظـان حتى جـاء يـروي روايـة الأحقـاب
وانتحى الغرب فالتقى بالعظام الغر خير الفلاسف الأنجاب
ودعانـا إلى الـورود فجئنـا بنفـوس منهومـة الأراب
فشربنا أشهى الشراب وذقنا من أفاويق كل شهد مذاب

* * *

إيـه أسـتاذنا لقـد زنـت عهـدًا كـان خـير العهـود للطـلاب
كنت فـذًّا لا ترتـوى العين منه فيلسـوفًا بعقلـه الجـواب
فـإذا مـا دعوتـه لحـديث هب كالليث مخدرًا في الغاب
وإذا مـا أثرتـه راح يعطـي الـرأي يحدى بـالمنطق الغلاب
في كلام عـذب وصـوت رقيـق مثـل صـوت الأبـوة الخـلاب
مـا بـه نبـوة ولـيس لديـه جفـوة المسـتعزّ بالألقـاب
لـيّن الطبـع في الجـدال، أنـيس في ابتسـام يـزين كـل خطـاب
كـل مـا فيـه كـان شـيئًا جديـدًا مـا رأينـاه في الزمـان الخـابي

قد رعى عهدنا فحق علينا رعي عهد المعلم الوهاب
وعلينا تقديس ذكراه فالعلم أحق الأمور بالإعجاب

* * *

إيه أستاذنا وقد غبت عنا وغياب الرجال أدهى مصاب
لا تلمني على الرثاء ودعني في مجال الرثاء أذكر ما بي
كل شيء يهون في العيش لولا ذكريات تعيد موت الصحاب
قم تأمل ماذا جرى وتأمل كيف صرنا في وحشةٍ
ذهب الشعر مثقلًا بجراح وهوى النثر خائر الأعصاب
وأردنا الجديد فالتبس الـ أمر وضعنا في زحمة الأثواب
أجديد بلا قديم لعمري إن هذا من الحديث العجاب
إن شعبًا لا يقدر الشعر شعب ضاع بين الهموم والأتعاب

* * *

لا تقل إننا نسيناك، كلا إننا ذاكرون عهد الطلاب
كل خلق يزول إلا عظيمًا عاش للدرس والحجى

* * *

كلمة السيد الأستاذ الدكتور فاخر عاقل

الأستاذ في كلية التربية

جميل صليبا المربي

كان جميل صليبا فيلسوفًا من طراز رفيع، ولكنه كذلك كان مربيًا خدم التربية معلمًا ومفكرًا وكاتبًا وفيلسوفًا، وسأقتصر في كلمتي السريعة وبسبب من ضيق الوقت على جانب من الناحية التربوية عند المرحوم الدكتور صليبا تاركًا للذي يحب أن يتعمق في فلسفته التربوية أن يقرأ كتبه الكثيرة ومقالاته العميقة عن آرائه التربوية وأفكاره في فلسفتها.

١- عمل صليبا مدرسًا في التعليم الثانوي ودور المعلمين، كما عمل أستاذًا في الجامعة ودرس التربية فيها سنين طوالًا.

٢- وعمل صليبا إداريًا، فكان مديرًا للتعليم الثانوي وأمينًا عامًا لوزارة التربية ورئيسًا للجنة التربية والتعليم في عهد الحصري وعميدًا لكلية التربية ورئيسًا لجامعة دمشق بالوكالة.

٣- ولقد ألف في التربية؛ وأشهر مؤلفاته فيها كتابه عن مستقبل التربية في الشرق العربي.

٤- شرّع للتربية، وأصدر قرارات وقوانين عديدة ومازال بعضها معمولًا به.

٥- حضر مؤتمرات تربوية عربية وعالمية (اليونسكو) وساهم فيها وفي توجيهها.

٦- شارك في إصدار مجلة العالم العربي ومجلة كلية التربية ورأس تحريرها، وأسس

جمعية متخرجي كلية التربية. ولقد حاضر وأذاع عن التربية، وكَتَبَ في التربية في كثير من المجلات.

٧- أما معالم تربيته فهي:

أ- العروبة وقومية التربية والاهتمام باللغة العربية والدعوة للوحدة الثقافية.

ب- الديموقراطية وتكافؤ الفرص.

ت- العدالة الاجتماعية وتعميم التعليم.

ث- علمية التربية والتجريب فيها وإقامتها على أساس من البحث التربوي العلمي.

ج- اهتمامه الخاص بتأهيل المعلمين.

ح- اهتمامه بالتراث العربي ودعوته إلى إحيائه.

٨- وهكذا فإن الجانب التربوي في حياة الدكتور صليبا جانب هام جدًّا عِلمًا وعملًا.

ولكي أوضح لكم مَعْلمًا من معالم فلسفته التربوية ألخص لكم مقاطع من كتابه **مستقبل التربية في الشرق العربي** الذي ألفه عام ١٩٦٢ ونشرته له كلية التربية في جامعة دمشق.

يقول الدكتور صليبا: «... إن سياسة التعليم المثالية تقتضي أولًا تحديد المثل الأعلى للإنسان في بيئة اجتماعية معينة، ثم تستلزم بعد ذلك الأخذ بالوسائل المؤدية إلى تحقيقه.

فما هو المثل الأعلى للإنسان في مجتمعنا العربي الحديث ؟

للجواب على ذلك أقول إن أكمل الناس في نظرنا من جمع قوة الجسم إلى صحة التفكير، ومتانة الخلق إلى قوة الإرادة... وإذا قلنا قوة الجسم فإنما نعني بذلك نمو

الوظائف العضوية كلها في وزن واحد من الانسجام لا تنمية عضو من الأعضاء على حساب الآخر، وإذا قلنا صحة التفكير فإنما نعني اتصاف الفرد بجودة الإدراك والحفظ وقوة الفهم والحكم والتخيل والإبداع، وكذلك إذا قلنا متانة الخلق وقوة الإرادة فإنما نعني بذلك معرفة الواجبات الخلقية العامة والخاصة والعمل بها: من كمال في الإرادة الحسنة وصدق في العقيدة واعتزاز بتراث الأمة العربية وإيمان برسالتها وإخلاص للقيم الروحية وتحرر من الأهواء والشهوات».

ثم يقول:

«... إن أهداف التربية في مجتمعنا العربي يجب أن تشتمل على الأسس التالية:

١- الأساس الأول هو أساس فردي، ونعني بذلك أن التعليم يجب أن يهدف إلى تنشئة أفراد أقوياء الأجسام مثقفي العقول، حسني الأخلاق...

٢- والأساس الثاني هو أساس اجتماعي ونعني به إعداد الطلاب إعدادًا اجتماعيًّا يحبب إليهم التعاون والتكافل والعدل والنظام والتقدم، ويعرفهم بحقوقهم وواجباتهم ويدعوهم إلى احترام حقوق الآخرين وحرياتهم.

وهذا يتطلب منا العمل بجميع وسائلنا على خلق مجتمع ديموقراطي يقدس الحرية والمساواة ويعتمد على العلم في تحرير الفرد من جميع ألوان الإقطاع والاستبداد والاستعباد ويحقق مبدأ العدل الاجتماعي والاقتصادي ويقلب الشعور الفردي من حالة الانفعال إلى حالة الفعل بحيث تصبح المحبة كما يقول (أوغست كونت) مبدأنا والنظام رائدنا والتقدم غايتنا...

٣- والأساس الثالث الذي يجب أن نستند إليه في تربيتنا القومية هو الأساس

الاقتصادي، ونعني بذلك أن التربية يجب أن تؤدي إلى تنشئة مواطنين منتجين يعرفون بيئتهم ويستنبطون منها مقومات حياتهم ويستغلونها للوصول إلى أسمى مقاصدهم. إن المدارس العربية لا تزال حتى الآن تعد تلاميذها للحياة إعدادًا نظريًّا عامًّا...

٤- والأساس الرابع الذي يجب أن تستند إليه تربيتنا هو الأساس القومي، ونعني بذلك إعداد جيل عربي محب لوطنه معتز بتراثه مؤمن بقوميته مخلص لوحدة أمته...

٥- والأساس الخامس لتربيتنا هو الأساس الإنساني العام، ونعني بذلك أن المثل الأعلى العربي يتطلب من الأفراد والجماعات أن يتصلوا بجميع الكمالات الإنسانية وأن يستمسكوا بمبادئ الحق والخير وأن يعاملوا الناس بما يعاملون به أنفسهم؛ فلا يبغضون ولا يتعصبون ولا يتعسفون، بل يصادقون جميع الأمم المحبة للسلام ويسهمون في تقدم الحضارة... إنهم لا يعادون إلا من يعاديهم... إن سياستهم هي العدل والإنصاف داخل البلاد العربية وخارجها».

أيها السادة

لقد كان جميل صليبا مربيًا متميزًا، بل كان فيلسوفًا تربويًّا واسع الأفق عميق الفهم. والكلام الذي اقتطفته عن كتابه وأسمعتكم إياه مازال حتى اليوم وبعد قرابة خمسة عشر عامًا صالحًا لأن يكون نبراسًا للمربين من أبناء الأمة العربية.

رحم الله الفقيد رحمة واسعة سعة علمه وعظم فضله، وعوض عنه الأمة العربية خيرًا.

* * *

كلمة آل الفقيد ألقاها ابنه

السيد حبيب صليبا

أصحاب السيادة، أيها الحفل الكريم!

ليس من السهل لإنسان أن يتكلم عن أبيه. لأنه أقرب الناس إليه، بل لأنه جزء من نفسه. إنه يحمل صورة أبيه في فؤاده، يتطلع إليها، ويستوحيها في حضوره وغيابه، فإذا هو هي، وهي هو.

لقد تفضل الخطباء الأكارم، فتحدثوا عن جوانب مختلفة من حياة جميل صليبا، وإن كان لي أن أقول كلمة الآن، فهي لأعرب عما عرفته عنه كأب.

كان **مفكرًا ومربيًا**، وقد أخلص لهاتين المهمتين إخلاصًا تامًّا، وجعلهما ديدنه في كل مجال حتى في مجال البيت الذي فيه نشأت والذي نعمت به بعطف الوالد المربي المفكر.

كان يؤمن بأن الوسيلة لشحذ فكر الطالب وتوجيهه، هي التحدث وإياه، وعرض الأفكار عليه وتقبل الأفكار منه. لذلك كان يشجع ولده الطالب على **النقاش**. وكيف لولده أن ينسى تلك الساعات الحلوة التي قضاها معه، مناقشًا أفكار فلاسفة الغرب وسير فلاسفة العرب.

وكان يؤمن أيضًا بأن التربية تقوم على بث **كرم الأخلاق**، لذلك حرص وهو المثالي في خلقه على أن يبث في ولده ما آمن به من مثل عليا، كتفضيل القيم على الجاه

والمال، وأهمية المُثُل كدافع في الحياة، والإيمان بالعقل، والاعتدال، والبساطة، والعمل الجاد المنتج، وسعة النظر ورحابة الفكر والصدر.

ولم يكن وهو المؤلف والمفكر ليحصر نفسه في حدود عمله فقط، يجلس الساعات الطويلة وراء مكتبه ولا يترك ما بين يديه، إلا بعد أن يكون قد أخرجه على أحسن صورة، وأتقنه أحسن إتقان.

ولم يكن وهو المؤلف والمفكر ليحصر نفسه في حدود عمله فقط، بل أراد أن تبقى نافذته واسعة مفتوحة على العالم الخارجي. لذلك كان شديد الاهتمام بشؤون الساعة، يناقشها ويفكر فيها. وكان شغله الشاغل مشكلات مجتمعنا العربي.

وكان مع انصبابه على عمله التأليفي وانصرافه إليه يأنس إلى معشر المثقفين ورجال الفكر من زملائه وطلابه، يستقبلهم في داره، ويتبادل وإياهم أطراف الحديث والآراء، وكان إلى هذا كله لا يضن بأي عون أو نصيحة إذا طلبهما منه أحد.

وإذا أردت أن ألخص ما كان عليه والدي، أقول: إنه كان **إنسانًا مخلصًا**. أخلص الإخلاص التام لكل ما قام به. لقد شاءت الأقدار أن يكون مربيًا فأخلص لدور المربي. وشاءت الأقدار أن يكون مؤلفًا، فأخلص لدور المؤلف والمفكر، كما أخلص لعائلته وأصدقائه وطلابه.

وكل همي وأنا أستعيد ذكراه يومًا بعد يوم هو أن أخلص له ولذكراه كما أخلص لي، وأن أكون المثل الصالح لما علم ولما كان.

وختامًا أتقدم باسم عائلته الصغرى إلى أعضاء عائلته الكبرى التي يمثلها هذا الحفل بأطيب الشكر والعرفان. وأخص بهذا الشكر سيادة الدكتور محمد الفاضل

رئيس جامعة دمشق الذي دعا إلى هذا الاحتفال، واللجنة التي نظمته، والهيئات التي اشتركت بممثليها فيه وهي: جامعة دمشق، ومجمع اللغة العربية بدمشق، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، واتحاد الكتاب العرب، وكلية التربية، وأصدقاء الفقيد. إلى كل من هذه المؤسسات التي حيكت في خيوطها حياة والدي، أتوجه بالعاطفة التي كان يكنها لها والتي وإن غابت عنا اليوم، فستبقى حاضرة في ما علم وما كتب وألف.

وأتشرف في أن أتقدم بالشكر والعرفان إلى السادة أعضاء القيادتين القومية والقطرية، وإلى السيد وزير التربية، وإليكم جميعًا لمشاركتكم بحضوركم الكريم راجيًا الله تعالى أن يحفظكم وأن يشملنا جميعًا برعايته وهدايته إلى سبل الحق والخير.

شكر وتقدير

أقدم أسمى آيات الشكر *لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث* على إتاحة الفرصة لي للبحث في جناح العلامة الدكتور «جميل صليبا» وأخص بالشكر مدير المكتبة السيد «محمّد حسن نوفليّه» على تسهيل مهمتي.

وأوجه شكري وامتناني للمهندسة السيدة «نور الخوري رومية» مؤسسة معهد الـ "Finishing Touch" على تكرّمها بوضع الأجهزة الإلكترونية تحت تصرفي، تسهيلًا لمهمتي؛ فكانت صلة الوصل بيني في دبي وبين دمشق.

المؤلفة في سطور :

- قلدت "وسام الاستحقاق الثقافي البولوني" في عام ١٩٧٣.
- في عام ١٩٩٤ منحتها الحكومة الفرنسية "وسام السعف الأكاديمي" بدرجة فارس.
- نالت من السفير الباباوي ورئيس الاساقفة Pier Giacomo De Nicolo سبحة مباركة من قبل قداسة البابا مع الميدالية البابلوية الصادرة بمناسبة مرور أربع سنوات على تنصيب قداسة يوحنا بولس الثاني.
- انتخبت "سيدة العام" ١٩٩٧ بموجب قرار المعهد الاميركي المتخصص في رصد سيرة الاشخاص الذين يؤدون أعمالاً متميزة ورائدة لصالح بلادهم ولحياة الانسان.
- قلّدت "صليب الفارس لوسام الاستحقاق لجمهورية بولونيا" ٢٠٠٢.
- كُرّمت من قبل اتحاد الكتاب العرب جمعية الترجمة في المركز الثقافي العربي – المزة بتاريخ ٢٠٠٣/١٢/٩. قدّم لها درع الاتحاد.
- قدّمت لها شهادة تقدير من اللجنة المركزية لكنيسة المنونايت في الولايات المتحدة الاميركية في ٢٠٠٢/٩/٢٦.
- قلّدت وسام السعف الأكاديمي بدرجة ضابط بموجب قرار صادر عن الحكومة الفرنسية بتاريخ ٢٠٠٣/١٠/١٠، وقلّدت الوسام المذكور في ٢٠٠٤/٦/٥.
- كُرّمت من قبل السيدة أسماء الأسد حرم السيد رئيس الجمهورية العربية السورية في "عيد الأم" ٢٠٠٧/٣/٢٠ ، وأهديت ميدالية ذهبية "الجنّة تحت أقدام الأمّهات"، في القاعة الشامية في دمشق.
- عضو في المجلس الاستشاري لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية بموجب قرار رقم ٤٢١ تاريخ ٢٠٠٧/١/١٠ الصادر عن رئيس مجلس الوزراء المهندس محمد ناجي العطري.
- شاركت كضيفة شرف في "المؤتمر العالمي لوحدة الانسان" الذي عقد في البنجاب – "أمريستار" و"كيربال ساغار" في الهند بتاريخ ٧-٢٠٠٧/١٢/١٠، وألقت مداخلة ٢٥ دقيقة بالفرنسية بعنوان "وحدة الانسان" "دمشق – العيش معاً فيما بين ثلاث ديانات وطوائف عديدة" بالمحبة والإخاء.
- عضو في هيئة الأمانة العامة الأهلية السورية لاحتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية.

مؤلفاتها :

١- "وكان مساء" مجموعة شعرية في رثاء زوجها صدر عام ١٩٦٥.
٢- "العصفور البشارة" مجموعة قصص قصيرة، مقالات وتجارب، صدر في عام ١٩٧٩،
٣- "بولونيا – عبقريات ورؤى" عام ٢٠٠٢.
٤- "لأجلك يا قدس" صدر في شهر آذار ٢٠٠٩.

بعض أعمالها المترجمة :

١. " الحركة النقابية في العالم "، جورج لوفان، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٦.
٢. " حزب العمال البولوني الموحد "، مقررات المؤتمر السادس، منشورات السفارة البولونية، دمشق ١٩٦٩.
٣. " بولونيا، وقائع وأرقام "، جزآن، منشورات السفارة البولونية، دمشق ١٩٧٠-١٩٧١.
٤. " النجود البولونية المعاصرة "، ١٩٧٠.
٥. " نيقولا كوبرنيك " (١٤٧٣-١٩٧٣) منشورات الاونسكو، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة الثانية ٢٠٠٢.
٦. " رفع شأن المرأة في جمهورية بلغارية الشعبية ".
٧. " القدس القضية "، الأب يواكيم مبارك، طبع بإشراف مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٧٤؛ جددت طباعته في حزيران ١٩٩٦، من قبل مجلس كنائس الشرق الأوسط.
٨. " الفن في القرن العشرين "، جوزيف اميل مولر، وزارة الثقافة عام ١٩٧٦؛ الطباعة الثانية، دار طلاس للنشر عام ١٩٨٨.
٩. " المعاهد الجامعية للتكنولوجيا "، ميشيل ايف برنار، ترجمة أحمد القادري وحسن الحراكي ١٩٧٦، مراجعة مهاة فرح الخوري – وزارة التعليم العالي.
١٠. " عالمنا الرائع في مغامرة الحياة "، فرنسيس برونه، منشورات وزارة الثقافة ١٩٨١.
١١. " حياتهن كلها عطاء – راهبات حاضرات حتى الموت "، الراهبة جوستينا فانيفو، المطبعة البولسية ، لبنان.
١٢. مراجعة نصوص كتاب "مسلمون ومسيحيون معاً من أجل القدس " منشورات مجلس كنائس الشرق الأوسط.
١٣. " كل انسان تاريخ مقدس"، تأليف جان فانيي، الناشر Plon، المطبعة البولسية، لبنان، ٢٠٠٣.